دكتور رشدي عزيز محمد
عميد كلية أصول الدين سابقا
وأستاذ العقيدة والفلسفة
جامعة الأزهر ، وجامعة قطر

عقيدة التوحيد

في الرسالات السماوية

من خلال النصوص القرآنية

الناشر
مكتبة المدارس
الدوحة - قطر ص.ب ١٦٨٠
تليفون ٤٢٧٠٨٥

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر / ٣ حمضان الموصلي بجوار جامع الرعاء
ت ٩٢٥٣٠٤



« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا ٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » ٠

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد . احمده سبحانه وتعالى حمد الشاكرين ، واشهد أن لا اله الا هو وحده لا شريك له . انفرد وحده بالالهية ، واختص دون سواه بكل صفات الكمال والجلال . سبحانه خلق الخلق وفطرهم على معرفته وتوحيده ولم يكلهم الى عقولهم وحدها فى التعرف عليه ، وانما أرسل اليهم الرسل ليأخذوا بيدهم الى الطريق المستقيم ويرشدوهم الى ما فطروا عليه من معرفته وتوحيده : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(١) .

واشهد أن محمدا عبده ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وجعل رسالته عامة وعالمية فلم تكن لشعب دون شعب او لقطر دون قطر وختم به النبيين وختم برسالته جميع الرسالات السماوية . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده حتى علت كلمة التوحيد واندحر الشرك واهله ورفرفت راية الاسلام فى كل أرجاء العالم .

وبعد .. فمن المعروف أن التوحيد هو الهتاف الذى هتف به كل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم وهو أساس الاسلام الذى جاءوا به جميعا ، فما من رسول أرسله الله الا وهدفه الأساسى والأسمى من رسالته ومفتتح دعوته هو الدعوة الى عبادة الله وحده .

ومن هنا . فقد أردت من تأليف هذا الكتاب ان اضع أمام القارىء

---

(١) النساء : ١٦٥

صورا ونماذج لرسالات السماء تلك التى جاءت تدعو الى عقيدة التوحيد - منذ ان خلق الله آدم عليه السلام وجعله خليفة فى الأرض الى أن ختمت الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ . ليستبين فى جلاء ووضوح مدى ما كان من صراع بين أصحاب هذه الرسالات وبين جحافل الشرك والوثنية فى كل رسالة من هذه الرسالات ، وليدرك مدى ما بذله كل رسول من فدائية وبطولة وتحد لكل الصعاب التى وضعها المنحرفون المشركون فى طريق الدعوة الى التوحيد الى ان كتب الله النصر لدينه ولرسله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

هذا .. ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو اننا سنعتمد بعد الله على القرآن الكـريم ونصوصه فى عرضنا لتلك السلسلة من رسالات السـماء باعتباره الكتاب السماوى الذى حفظه الله من التحريف والتبديل مصداقا لقوله تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »(٢) .

ولأنه الكتاب السماوى الوحيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

أما غيره من الكتب السماوية السابقة عليه كالتوراة والانجيل فلا اعتماد لنا عليها فى هذا المجال وغيره لأنها محرفة مبدلة ظاهرة التناقض والفساد . ولأنها قد نسبت الى رسل الله صلوات الله عليهم ما هو مذموم وقبيح وما الى ذلك مما يتنافى وعصمة الأنبياء . ولا اقول ذلك افتراء على كتب العهد القديم أو الجديد فمن أراد ان يعرف صدق ذلك فعليه أن يطلع على ما حوته هذه الكتب من نصوص وسيجد ما اشتملت عليه من دس رخيص على أنبياء الله الذين اصطفاهم من خيرة خلقه .

هذا .. ولا يفوتنى فى هذه العجالة أن اشـير الى ان كثيرا من المسلمين يجهلون هذه الحقائق ولا يعرفون مدى ما تحويه كتب اليهود والنصارى من تجن على رسل الله ، كما لا يعرفون مدى ما يحويه ديننا الحنيف من كنوز وذخائر تضمن لعارفيها سعادة الدنيا والآخرة .

---

(٢) الحجر : ٩

ولو انصف المسلمون لانكبوا على الاسلام وعلومه وثقافاته يطالعونها ويستفيدون مما حوته من منافع جمة ، هـذه المنافع التى استفاد منها أعداؤنا فى وقت أخذنا نغط فيه فى نوم عميق فتقدموا وتأخرنا ٠

على أن الاهتمام بمعرفة رسالات السماء والأدوار التى قام بها رسل الله كما صورها القرآن ومضاهاتها بما سطره أهل الكتاب فيما يسمونه بالكتب المقدسة من مغالطات وتناقضات وكذلك الاهتمام بالثقافة الاسلامية ومعرفة ماضينا المجيد كل هذه أمور تستدعيها طبيعة الاسلام دين التوحيد الخالص ، كما أن من طبيعة الاسلام أن يهتم المسلمون بما يجرى فى العالم ، لأن الاسلام ـ كما قلت ـ دين عالمى لا دين شعب أو قطر معين ولأن المسـلمين اليوم موجودون فى كل قارات الدنيا ، فالذى يريد أن يكسب رضاء الله تعالى بالعمل لاعلاء كلمته ـ وهى مهمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ـ لابد له من الاطلاع على كتب غير المسلمين ليعرف ما حوته هذه الكتب من دس رخيص ، كما لابد له من الاطلاع على أحوال العالم ومتابعتها ليعرف ماذا يدبر له ولدينه من مكائد وعوائق وماذا فى العالم من فرص موانية ومساعدة لنشر الاسلام والتوحيد ودعم كلمة المسلمين وتوحيدهم ٠

ومما يساعد على ذلك أن أبواب الفكر فى عصرنا مفتوحة على مختلف الثقافات فوسائل الاعلام المختلفة ، ودور النشر والترجمات ، كل هذا قد سهل انتقال الآراء والأفكار ، وأصبح من المستحيل على أمة ما أن تغلق على نفسها نوافذ المذاهب والأفكار الوافدة من شتى الأقطار والمجتمعات يهودية كانت أو نصرانية أو شيوعية ٠٠٠ الخ ٠

ان أسلافنا من العلماء المسلمين كالغزالى وابن تيمية وغيرهما كانوا ملمين بالعلوم الرياضية والفلكية والطبيعية المنتشرة فى عصرهم ومطلعين على الأفكار المناوئة لدينهم من فلسفة يونانية وكتب يهودية أو نصرانية ولم يكن لهم من الامكانيات ما هـو متوفر لدى المسـلمين اليوم ممـا سبقت الاشـارة اليه ٠

فعلى مسلمى اليوم أن يتخذوا من هؤلاء قدوة فى التعرف على دينهم

وتراثهم ولو انهم فعلوا لأدركوا حقيقة ما جاء به رسل الله وخاتمهم محمد ﷺ ولوقفوا على جوهر ما تركه هؤلاء الرسل من الدعوة الخالصة للتوحيد ، والتخلق بكل جميل ، وعمل كل نبيل .

اننا بحاجة ماسة الى التعرف على رسالات السماء كما جاء بها القرآن الكريم وتبدو هذه الحاجة أشد الى معرفة الاسلام فى صورته الكاملة التى جاءت على يدى محمد ﷺ ، كما اننا بحاجة الى معرفة تراث الاسلام الخالد الذى خلفه لنا اسلافنا .

وليس من شك فى أن معرفة هذه الأمور ضرورية لأنها توقفنا على ما لدينا من مقومات الوجود والتقدم ، ولأننا نتسلح بها تجاه الافكار والعقائد الأخرى التى اختلط فيها الحابل بالنابل ولعبت بها وبأصحابها الأهواء والنزعات ولأن الشباب المسلم حين يتعرف على حقيقة دينه وسعة جوانبه ، وضخامة ما يستطيع أن يقدمه للانسانية جمعاء ، يزداد ثقة بنفسه لثقته بعقيدته ويقوى امله فى حاضر مجيد ومستقبل اكثر امنا ومجدا .

وليس من شك فى ان الآلاف من المفكرين والعلماء المسلمين ، قد قدموا لنا آلاف الآلاف من الذخائر والنفائس التى اكتظت بها آلاف المكتبات ، تلك التى تغطى العالم الاسلامى من مشارق الصين الى الأطلسى ، ومن تركستان وغرناطة الى عدن ودلهى بشكل يبهر العقول ويحير الألباب .

وهذه الذخيرة الاسلامية قد دامت مدة طويلة وكانت أساسا للثقافة والحضارة الغربية المستقاة من تراث مفكرى الاسلام حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) وكانت بذلك بداية النهضة والتقدم فى اوروبا والعالم الغربى كله .

ثم ان الحاجة الى معرفة الاسلام وعلومه وثقافته تتجدد مع تطور الفكر الانسانى وتبدو ضرورتها والحاجة اليها فى نطاق العرب والمسلمين والانسانية جمعاء .

اما حاجة العرب الى الاسلام وعلومه وثقافته ..

فلأن الاســلام هو الذى يميز الشخصية العربية ، فهو الذى يعطى العرب شخصيتهم وتميزهم ، والا فما معنى العربى وما معنى العروبة لولا الاســلام ؟

واذا كان للعرب رســالة تميزهم عن غيرهم فليست هذه الرســالة الا الاسلام ولا تتميز العروبة بمجرد الادعاء ، وأى محاولة لتجريد فكرة العروبة عن الاسلام هى محاولة لتجريد العروبة من روحها وحياتها . ولعل سبب حياة الحيرة والقلق التى يحياها العرب اليوم ترجع الى ان بعض الشعوب العربية تبدو تائهة عن هذه الحقيقة ، فهى تتلمس كيانها وشخصيتها من خــلال نظريات ومذاهب غريبة على العرب ، ناسية أن الشخصية تنبع من الذات لا من الغير لأنها حصيلة تاريخ ماض ، وحاضر واقع ، ومستقبل مأمول .

يضاف الى ذلك ان العرب بالاسلام يصبحون من الأمم ذات الرسالات والمبادىء ، وفرق كبير بين أمة تائهة تأخذ من هنا وهناك لترقع ثوبا لا تبدو فيه الأصالة والطرافة ، وبين أمة رائدة قائدة تفاخر برسالة وتحمــل مبدأ وعقيدة .

وأما حاجة المسلمين الى الاسلام وعلومه وثقافته ..

فلأن هذا الدين هو الذى يستطيع ان يوحد هذه الشعوب الممتدة على طول الكرة الأرضية وعرضها ، وهى ولا شك شعوب تضم أجناسا وألوانا متعددة وتتكلم لغات مختلفة ، ومع ذلك فهى تحن الى هذا الدين وتتعطش الى معرفة ما حواه من معارف فى مختلف جوانب الحياة ، وتحس احساسا عميقا بأن لا وســيلة لنصرتها وانقاذها من الضياع ، وابعاد الأيدى التى تنوشها من هنا وهناك الا بهذه الثقافة النابعة من الاسلام دين التوحيد .

فالمسلمون دون الاسلام مفرقون ضائعون فاقدون لكل مقومات الحياة والاحترام ، وهم بالاسلام أمة واحدة وكيان قوى واثق من نفسه شاعر بانسانية وعالمية الرسالة التى يحملها وبأفضليتها .

والاسلام هو الذى يجعل من المسلمين **القوة الثالثة فى العالم** ، القوة التى تبنى ولا تهدم ، تجمع ولا تفرق ، تتخذ من الحكمة شعارا لدعوتها ، وتنأى بأصحابها عن التشنج والعصبية ، القوة التى تستطيع أن توازن بين الكتل المتصارعة ، وقد يصبح المسلمون بالاسلام القوة الأولى التى تهوى اليها النفوس والأفئدة اذا ادركوا قيمة رسالتهم الوسطى التى تجمع بين قوة المادة وضرورتها وبين اهمية الروح فى السيطرة على المادة كيلا تضل بها الطريق وتتجاذبها نوازع الشر وشهوات الأنفس .

وأما حاجة الانسانية الى الاسلام وعلومه ..

فهى لا تقل اهمية عن حاجة العرب والمسلمين ، فالمذاهب التى تسود العالم الآن لا تنظر الا للجانب المادى من الحياة ، ومن اجل ذلك كانت المصلحة والأنانية والاستغلال هى الأخلاق السائدة فى تنظيم المجتمعات البشرية وحين تتخلى الانسانية عن المثل والقيم الأخلاقية تصبح الحضارة والآلة والمخترعات وسائل اضرار ، وينقلب الانسان الى وحش كاسر ــ كما هو الحال فى الدول اللااسلامية شرقية كانت أو غربية ــ والاسلام وحده بعقيدته ونظمه وتشريعاته هو الذى يملك تسخير المادة والحضارة لخير الانسانية وهو الذى يستطيع ان ينقذ الشعوب من المصير الذى تساق اليه ، بسبب انطلاق عقال المصلحة والأنانية والاستغلال ، وهو كذلك الذى يستطيع ان يكشف زيف الحضارة المادية وما تنطوى عليه من تناقضات ومفارقات .

ان الحضارة لا تعنى البريق الظاهر منها فحسب ، وأى فضيلة لحضارة تسمح لأفرادها ان يسوقوا الشعوب ويلتهموا خيراتها والكثيرون يتلمسون طريق الخلاص .

فالعالم الذى لم يتحرر بعد يجب أن يمد له الاسلام طريقه للخلاص ، والعالم الذى يستغل يجب ان يقدم له الاسلام سبيل الهداية والرشاد ، والمسلمون هم المهيئون للأخذ بيد العالم ، وقد أخذوا بيده يوما ما فعرف الناس الاستقرار فى ظل الكرامة الغامرة ، والانسانية الراشدة .

وليس من شك فى أن مهمة الأمة الاسلامية مهمة قيادية توجيهية

وصدق الله العظيم القائل : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** »(٣) . والقائل فى آية أخرى : « **وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شـهداء على الناس ويكون الرسـول عليكم شـهيدا** »(٤) .

هذا .. وسوف اتناول فى هذا الكتاب بعد التمهيد المراحل التى مرت بها عقيدة التوحيد مرحلة مرحلة ، وعلى سبيل التفصيل فى بابين :

فى الباب الأول : سأتناول من خلال فصوله عقيدة التوحيد من خلال الرسالات السماوية الخاصة ، اى الى ما قبل بعثة محمد ﷺ .

وفى الباب الثانى : سأتناول هذه العقيدة كما جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين فى رسالته العامة والخاتمة لكل رسالات السماء .

وعلى هذا نسير ان شاء الله ، مستنيرين بهدى القرآن والسنة ، مؤيدين ما نذهب اليه بأقوال العلماء المتخصصين .

والله الموفق ..

د. رشدى عزيز محمد

* * *

(٣) آل عمران : ١١٠ (٤) البقرة : ١٤٣



لا جدال فى ان الاسلام هو دين الأنبياء جميعا من لدن آدم الى محمد ﷺ ، وهو بما اشتمل عليه من عقيدة ونظام فى جميع الأدوار التى مر بها على أيدى رسل الله انما يشكل بناء له اسسه وأركانه التى يعتمد عليها وبها يبقى قويا راسخا واهم اساس لهذا البناء هو العقيدة ، وأول عناصر العقيدة هو الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له ٠

لما كان ذلك كذلك ٠ كان لزاما علينا أن نلقى الضوء فى هذا التمهيد على بيان معنى الاسلام ، ثم نتبع ذلك ببيان معنى التوحيد ليكون القارىء على بينة من الأمر ٠

● معنى الاسلام :

اننا اذا تتبعنا مادة « سلم » فى اللغة نجدها تأتى بهذه المعانى :

١ ــ معنى الخلوص والتعرى من الآفات الظاهرة والباطنة ٠

٢ ــ معنى الصلح والأمان ٠

٣ ــ معنى الطاعة والاذعان ٠

ويذكر « لسان العرب » : أن الاسلام قد يسمى « السلم » و « السلم » بكسر السين أو فتحها ٠

وهذه الأسماء الثلاثة « الاسلام ، والسلم ، والسلم » هى الفاظ عربية ، لها معان هى حقائق لغوية ، ولما استعمل القرآن الكريم هذه الألفاظ فى الدلالة على الدين الاسلامى ، كان ذلك تصرفا فى المعنى اللغوى الأصلى ٠

وقد جرى عرف العلماء على تسمية الألفاظ المستعملة فى المعانى الشرعية « بالأسماء الشرعية » وهذه الأسماء الشرعية متفرعة عن المعانى اللغوية وذات صلة وثيقة بها ٠

أما المعنى الشرعى للاسلام فهو : الاستسلام والخضوع والانقياد لاله واحد هو خالق الكون ومدبره .

والاستسلام له يعنى : طاعة أمره ، واجتناب نهيه ، والعمل على تنفيذ شريعته التى هى فى صالح البشر جميعا فى اى زمان واى مكان .

والاسلام بهذا المعنى هو :

أولا : دين الكون كله : أى أن كل المخلوقات مسلمة لله ، **مستسلمة** لأمره فالملائكة مسـلمون لأنهم « **لا يعصـون الله ما أمرهم ويفعـلون ما يؤمرون** »(١) والسموات والأرض وكل ما فيهما مسلم : « **افغير دين الله يبغون وله أسـلم من فى السـموات والأرض طوعا وكرها واليـه يرجعون** »(٢) ، « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** »(٣) ، « **الم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون** »(٤) ، « **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** »(٥) .

ثانيا : هو دين الانسانية كلها : لأنه الدين الذى جاء به كل الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم الى محمد ﷺ . وفى هـذا يقول الله تعالى : « **ومن أحسن قـولا ممن دعـا الى الله وعمـل صالحا وقال اننى من المسلمين** »(٦) ويقول : « **ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسـلمين من قبل** »(٧) .

ثالثا : وهو الدين الخاتم الذى جاء به محمد ﷺ فى صورته الكاملة للبشرية كلها وفى هذا يقول الله تعالى : « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** »(٨) ، « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** »(٩) ففيه يجدون

---

(١) التحريم : ٦
(٢) آل عمران : ٨٣
(٣) الاسراء : ٤٤
(٤) النور : ٤١
(٥) الرعد : ١٣
(٦) فصلت : ٣٣
(٧) الحج : ٧٨
(٨) سبأ : ٢٨
(٩) الأنبياء : ١٠٧

كل مقومات نهضتهم والارتقاء بهم سلوكا وارادة ، ومبادىء ، وقيما ، وبشرية مهذبة ٠

وعند تدبرنا لآيات القرآن الكريم نجد أن هذا الكتاب العزيز قد جعل الاســلام فى مقابلةالشرك : « **قل أغير الله أتخذ وليا فاطر الســموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، قل انى أمرت ان أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين** »(١٠) ٠

كما جعله فى مقابلة الكفر : « **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون** »(١١) ٠

وكذلك جعله بمعنى الاخلاص لله وذلك حين يثنى على من اخلص نفسه لله وجعلها سالمة لا تعرف لها ربا ولا معبودا سواه : « **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** »(١٢) ٠

هذا ٠٠ وقد ورد الاسلام فى القرآن بمعنى الخضوع والانقياد لله سبحانه وذلك فى قوله تعالى : « **وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له** »(١٣) ٠

كما أطلق القرآن لفظ « أسلم » بهذا المعنى احيانا على المؤمنين والكافرين جميعا لأنهم خاضعون لله منقادون له بحكم خلقتهم رضوا أم كرهوا تسرى عليهم قوانين العالم وذلك فى قوله تعالى : « **أفغير دين الله يبغــون وله أســـلم من فى الســـموات والأرض طوعا وكرها واليــه يرجعون** »(١٤) ٠

ومعنى أسلم هنا اى خضع لأمر الله واطاع لمــا وضع فى العالم من قوانين ، ثم قصرت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعا ، فكأن المسلم هو الذى رضى باطاعة الله فاجتمعت فيه الطاعة الطبيعية والطاعة بالارادة ، ولهذا تطلق كلمة مسلم على كل من خضع لله وأطاع أى نبى من الأنبياء(١٥) ٠

كان هذا فيما يتعلق ببيان معنى الاسلام ٠

* * *

---

(١٠) الأنعام : ١٤ (١١) آل عمران : ٨٠

(١٢) النساء : ١٢٥ (١٣) الزمر : ٥٤ (١٤) آل عمران : ٨٣

(١٥) روح الدين الاسلامى ، للأستاذ عفيف طبارة ص ١٤ ٠

● معنى التوحيد :

اما فيما يتعلق ببيان معنى التوحيد فنقول :

يذكر ابن الاثير فى كتابه : « النهاية » مبينا المعنى اللغوى للكلمة فيقول : « فى اسماء الله تعالى الواحد » هو الفرد الذى لم يزل ولم يكن معه آخر ، قال الأزهرى : الفرق بين الواحد والأحد : ان الأحد بنى لنفى ما يذكر معه من العدد ، تقول : ما جاءنى احد ، والواحد اسم بنى لمفتتح العدد . تقول جاءنى واحد من الناس ، ولا تقول : جاءنى احد . فالواحد منفرد بالذات فى عدم المثل والنظير ، والأحد المنفرد بالمعنى ، وقيل : الواحد هو الذى لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ، ولا يجمع هذين الوصفين الا الله تعالى » .

وها هو صاحب كتاب المفردات « الراغب الأصفهانى » يقول فى هذا الصدد « الوحدة : الانفراد ، والواحد فى الحقيقة هو الشىء الذى لا جزء له البتة ، ثم يطلق على كل موجود حتى أنه ما من عدد الا ويصح أن يوصف به ، فيقال عشرة واحدة ومائة واحدة ... فالواحد لفظ مشترك يستعمل على أوجه :

١ ــ الأول ما كان واحدا فى الجنس أو فى النوع كقولنا « الانسان والفرس واحد فى الجنس » ، و « زيد وعمرو واحد فى النوع » .

٢ ــ ما كان واحدا بالاتصال : اما من حيث الخلقة كقولك : شخص واحد ، واما من حيث الصناعة كقولك : حرفـــة واحدة .

٣ ــ ما كان واحدا لعدم نظيره ، اما فى الخلقة كقولك : الشمس واحدة ، واما فى دعوى الفضيلة كقولك : فلان واحد دهره ، وكقولك : نسيج وحده .

٤ ــ ما كان واحدا لامتناع التجزى فيه اما لصـغره كالهباء واما لصلابته كالمـــاس .

٥ ــ للمبدأ ، اما لمبدأ العدد كقولك : واحد اثنين ، واما لمبدأ الخط كقولك : النقطة الواحدة .. والوحدة فى كلها عارضة .

ثم يقول الراغب الأصفهانى بعد هذا : « واذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذى لا يصلح عليه التجزى ، ولا التكثر لصعوبة هذه الوحدة . قال الله تعالى : « **واذا ذكر الله وحده** »(١٦) والوحد المنفرد ويوصف به غير الله كقول الشاعر : « على مستأنس وحد » وأحد مطلقا لا يوصف به غير الله تعالى » .

ونحن من خلال تأملنا لما قاله «ابن الأثير» و «الراغب الأصفهانى» لا شك ندرك أن مادة « وحد » تعنى انفراد الشىء بذاته أو بصفاته أو بأفعاله وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه ، وأن « وحد » اذا عدى بالتضعيف فقيل وحد الشىء توحيدا كان معناه : اما جعله واحدا ، أو اعتقده واحدا . كما قال الله تعالى حكاية عن المشركين : « **أجعل الآلهة الها واحدا** »(١٧) .

ونخلص من كل هذا الى أن توحيد(١٨) الله تعالى معناه :

اعتقاد أنه اله واحد لا شريك له ، ونفى المثل والنظير عنه تعالى ، والتوجه اليه وحده وافراده بالعبادة .. وعندما نقول : الله واحد أو أحد فان معنى ذلك : انفراده بما له من ذات وصفات ، وعدم مشاركة غيره له فيها ، فهو واحد فى الاهيته بحيث لا اله غيره ، وهو واحد فى ربوبيته فلا رب سواه ، وهو واحد فى كل ما ثبت له من صفات الكمال التى لا يوصف بها غيره والتى لا تنبغى الا له سبحانه وتعالى . وبعبارة اخرى : ان التوحيد الذى نزلت به الكتب وبينه القرآن ودعت اليه الرسل هو توحيد الالهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له فان المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وان خالق السموات والأرض واحد كما اخبر تعالى عنهم بقوله : « **ولئن سألتهم من خلق**

---

(١٦) الزمر : ٤٥ (١٧) سورة ص : ٥

(١٨) تطلق كلمة « التوحيد » ويراد منها المعنى المصدرى ، وتطلق ويراد منها الفن المدون المسمى بهذا الاسم . ولما كان الاطلاق بالمعنى الثانى ليس مرادا هنا فانا سنقتصر على بيان التوحيد بالمعنى الذى ذكرناه .

السموات والأرض ليقولن الله »(١٩) ، « **قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون** »(٢٠) ولم يكونوا يعتقدون فى الأصنام أنها مشاركة لله فى خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال امثالهم من مشركى الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون ان هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم الى الله وهذا كان أصل شرك العرب ، قال تعالى حكاية عن قوم نوح : « **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** »(٢١) • وقد ثبت فى صحيح البخارى وكتب التفسير وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف ان هذه أسماء قوم صالحين فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، وان هذه الأصنام بعينها صارت الى قبائل العرب(٢٢) •

هذا •• وقد سمى الاسلام توحيدا لأن مبناه على ان الله واحد فى ملكه وافعاله لا شريك له ، وواحد فى ذاته وصفاته لا نظير له ، وواحد فى الاهيته وعبادته لا ند له ، والى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا به من عند الله(٢٣) •

وحين نقرأ بامعان اسفار « العهد القديم » و « العهد الجديد » ـ برغم ما هما عليه من التحريف والتبديل ـ نستطيع ان نلمس أن كلا منهما نص على هذا التوحيد(٢٤) الذى نصت عليه آيات القرآن الكريم ـ المصدق

---

(١٩) لقمان : ٢٥ (٢٠) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥
(٢١) نوح : ٢٣
(٢٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩ تحقيق جماعة من العلماء ـ ط : المكتب الاسلامى ، ١٣٩٢هـ •
(٢٣) انظر : تيسير العزيز الحميد ، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ١٧ •
(٢٤) اقرأ الاصحاحات والفقرات التالية من التوراة والانجيل ثم قارنها بآيات الوحدانية فى القرآن الكريم : (٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ سفر الخروج) و (٩٠ ، ١٧ زبور) و (٤ ، ٣٩ سفر التثنية) و ١٨ ، ٣٠ سفر

لمـا بين يديه من التوراة والانجيل ـ والذى يقرر أن دين كافة الأنبياء ، وصراط كافة الرسل هو التوحيد . فالله تعالى يقول لرسوله محمد ﷺ : **« وما أرسلنا من قبلك من رسـول الا نوحـى اليه أنه لا الـــه الا أنـــا فاعبدون »(٢٥) .**

ويقول ايضا : « **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** »(٢٦) .

وإذن ، فما من رسول الا وكانت اولى كلماته ومفتتح رسالته الى قومه : « **اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** »(٢٧) .

ولقد جاء الاسلام فى صورته الكاملة على يدى محمد ﷺ ليقرر هذا التوحيد ويثبته لله ذاتا وصفاتا وأفعالا ، وينزهه عن مشابهة المخلوقين واقام الأدلة القاطعة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعته من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى انه تعالى لا يشبه شـيئا من خلقه ولا يشبهه شىء منها وانه موجدهم وانهم له واليه راجعون .

ولمـا كانت عقيدة « التوحيد » اساس الدين الاسلامى ـ دين جميع الأنبياء والرسل والعقلاء جميعا ، بل لمـا كان التوحيد هو الفطرة التى فطر الله الناس عليها جعل القرآن الكريم طريق الاستدلال اليه واضحا أمام العقل الفطرى للانسان ، ثم دعاه الى التفكير فى هذه القضية فى هدوء وتبصر ، ودون اندفاع أو عجلة ، وبلا ميل أو هوى ، وذلك حتى يتوصل الى الحقيقة التى تشهد بها آيات الخلق ، وظواهر الكون .

لقد بين القرآن ذلك للناس بأسلوب منطقى انيق ، وبتهذيب سلمى

= الخروج) و (١١ ، ١٥ ملوك) و (٣١ ، ١٥ أيوب) (٩ ، ٦ نحميا) و (٣ ، ٢٠ رومية) و (٢ ، ٥ تيموثاوس) .

(٢٥) الأنبياء : ٢٥ (٢٦) الزخرف : ٤٥

(٢٧) الأعراف : ٨٥ ، هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، المؤمنون : ٢٣ ، ٣٢

رشيق يقول الله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون** »(٢٨) ٠

والدليل العقلى على وحدانيته تعالى : أنه لو وجد الهان فاما ان يتفقا ، وأما ان يختلفا ، فان اتفقا على ايجاد الكون معا لزم المحال وهو اجتماع مؤثرين على اثر واحد ، ولا جائز أن يوجد أحدهما أولا ثم يوجده الآخر بعد ذلك لئلا يلزم تحصيل الحاصل ٠

ولا جائز ان يوجد احدهما البعض ويوجد الآخر البعض الباقى فذلك دليل عجزهما معا لتعلق قدرة احدهما على الآخر لاتمام العمل ٠

اما اذا اختلفا بأن اراد احدهما ايجاد العالم ، واراد الآخر اعدامه فان نفذ مرادهما معا لزم المحال وهو اجتماع الضدين ٠ وان نفذ مراد احدهما دون الآخر لزم عجز من لم ينفذ مراده ٠

والى هذا الدليل يشير قول الله تعالى : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** »(٢٩) والآية تفيد أنه لو تعددت الآلهة لخرجت السموات والأرض على النظام المعهود لهما ولفسدتا ٠

لكنهما لم تفسدا فالنتيجة الحتمية اذن انه لا اله الا الله ٠

يقول الأستاذ محمد مجدى مرجان : « التوحيد هو دين الكافة ، كافة العقلاء والعلماء والفلاسفة والأنبياء وكل ذى بصيرة ، ولقد عرفت الانسانية التوحيد منذ القدم ، ونادى به من لم تصل اليهم رسالات السماء أو بشارات الأنبياء ، عرفه المصريون القدماء ونادى به فرعون مصر اخناتون وعرفه فلاسفة اليونان القدامى ، وعرفه كل من فطر على السوية والصواب ، هؤلاء جميعا عرفوا التوحيد ، وهدتهم فطرهم السليمة اليه »(٣٠) ٠

* * *

---

(٢٨) المؤمنون : ٩١ — (٢٩) الأنبياء : ٢٢

(٣٠) الله واحد أم ثالوث ، تأليف الأستاذ محمد مجدى مرجان ص ١٢٦ ٠

الاسـلام دين التوحيـد

لقد سمى الله منذ الأزل « مسلما » كل من اعتنق اسس هذا التوحيد وسار على مضمونه من اسلام الوجه له ، والانقياد اليه ، والتوكل عليه ، وتسليم الأمر لمدبر الأمر ومصرف الكون ، وعلى هذا فوصف الاسـلام ليس منصبا على كل من آمن بدعوة محمد ﷺ فحسب بل هو وصف ولقب اطلقه الله من قبل على كل من آمن برسله السابقين على رسولنا محمد ﷺ ، اطلقـه على كل من وحـد ربه واسـلم وجهه وقلبـه وامره كله لله رب العالمين(١) .

● **التوحيد دين الأنبياء جميعا :**

يخبرنا القرآن الكريم أن الدين الذى دعا اليه الأنبياء والمرسلون جميعا هو الاسلام « دين الوحدانية » وأن هذه الوحدانية هى نقطة الالتقاء بين جميع الديانات السماوية ، وأن الأنبياء والرسل ومن تبعهم وآمنوا بهم كانوا مسلمين ونادوا جميعا بالاسلام واوصوا به ذويهم .

ولـا كنت ساتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى مكان لاحق من هذا الكتـاب بدءا من آدم وانتهـاء بمحمد ﷺ . فانى ساقتصر فى هـذا التمهيد على عرض لبعض نماذج من آيات القرآن الكريم من شانها ان تفيدنا فيما نحن بسبيله .

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : **« وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون »**(٢) .

وها هو نبى الله ورسوله نوح يبين لقومه انه لا يطلب على دعوته اجرا منهم وانما هو من المسلمين : **« فان توليتم فما سألتكم من أجر ، ان أجرى الا على الله ، وأمرت أن اكون من المسلمين »**(٣) .

---

(١) الأديان فى القرآن.للدكتور محمود بن الشريف.ص ٣٦ ــ ٣٧
(٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) يونس : ٧٢

ويقول عز من قائل لمحمد وامته : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** »(٤) ·

ويقول لرسله صلوات الله عليهم : « **يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم · وان هـذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون** »(٥) ·

ويقول فى شان ابراهيم عليه السلام بعد مدح كبير له امرا اياه ان يكون مسلما : « **اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين · ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون · ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبـد الهك واله آبائك ابراهيم واسـماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون** »(٦) ·

وفى آية أخرى يثبت القرآن نسبة ابراهيم الخليل الى الاسلام وذلك فى معرض رده على اليهود والنصارى عندما ادعوا أن ابراهيم منهم فقال : « **ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيـا ولكن كان حنيفا مسـلما وما كـان من المشركين** »(٧) ·

ويوسف عليه السلام يقول مخاطبا ربه : « **أنت وليى فى الدنيـا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين** »(٨) ·

ويتحدث القرآن كذلك عن موسى عليه السلام وهو يقول لقومه : « **ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين** »(٩) ·

وهؤلاء حوارى عيسى عليه السلام يقولون له : « **نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** »(١٠) ·

---

(٤) الشورى : ١٣
(٥) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢
(٦) البقرة : ١٣١ – ١٣٣
(٧) آل عمران : ٦٧
(٨) يوسف : ١٠١
(٩) يونس : ٨٤
(١٠) آل عمران : ٥٢

ولما ارسل الله رسوله محمدا بالرسالة المكملة والخاتمة لهؤلاء جميعا خاطبه بقوله : « **انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده، واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا** »(١١) .

وها هو خاتم الأنبياء والمرسلين يقول فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء اخوة لعلات أماتهم شتى ودينهم واحد »(١٢) .

وبنوا العلات هم أبناء الرجل من نسوة شتى .

* * *

---

(١١) النساء : ١٦٣

(١٢) صحيح البخارى ١٣٧/٤ كتاب الأنبياء ، باب « واذكر فى الكتاب مريم » وهو بمعناه بألفاظ متقاربة فى مسلم وابى داوود ومسند احمد .

اسباب تعدد الرسل والرسالات

ولقائل ان يقول : اذا كان الله قد اوحى الى محمد كما اوحى الى النبيين من قبله فلم اختلفت هـذه الرسالات جميعها ؟ وهنا نقـول : ان الاسلام دين واحد برغم تعدد الأنبياء واختلاف الشرائع ٠

ضرورة ان الهدف الذى أرسل الأنبياء والمرسلون من اجله هو الدعوة لعبادة الله الواحد ونبذ ما عداه من معبودات باطلة ٠

صحيح ان الشرائع تختلف من رسول الى رسول ولكن اختلافها آت من جهة ان لكل رسول طريقته فى دعوة قومه والتى يراها بفطنته مناسبة لعقولهم وزمانهم ، فلا يستطيع عاقل ان ينكر اختلاف الظروف والبيئات كما لا ينكر ان عقول الناس وتجاربهم فى تطور مستمر ، ولكى يتحقق التدرج فى التشريع كان لابد من ان تختلف الشرائع فى اسلوبها وان تتعدد الرسالات السماوية ويبقى هدف الجميع افراد المعبود بالعبادة ٠

ثم ان القرآن الكريم قد عالج هذا الاعتراض وقدم لذلك بدهيات علمية منطقية تلقى ضوءا على الأديان الحاضرة وتبين الحق من الباطل ٠

منها : انه أخبر ان الله لم يرسل رسولا الا بالدعوة الى وحدانية الله تعالى ولهذا يخاطب الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : **« وما أرسـلنا من قبلك من رســول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون »**(١) ٠

ولهذا ايضا أمره الله بدعوة اليهود والنصارى الى الوحدانية الخالصة **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »**(٢) ٠

---

(١) الأنبياء : ٢٥

(٢) آل عمران : ٦٤

واذا كانت هذه الآيات تخبرنا ان الله لم يرسل رسولا الا بالدعوة الى وحدانيته فغير التوحيد اذن دخيل على الأديان ٠

ومنها : ان الدين واحد وان الاختلاف الذى كان فيه على مر العصور كان بسبب البغى والعدوان على الدين وتحريفه من قبل القائمين عليه بما يوافق مصالحهم للوصول الى الرياسة وحظوظ الدنيا ٠ وجاءت رسالة محمد لتوضح هذه الحقيقة ، ولتدعو الناس جميعا ان يجتمعوا على الدين الاسلامى وفى هذا يقول الله تعالى : « **ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ٠ فان حاجوك فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد** »(٣) ٠

فالدين اذن واحد ولا يجوز الاختلاف فيه ٠ غير ان الخلاف الذى حدث انما كان من اتباع الأديان : ويبدو هذا واضحا فى اليهودية والنصرانية من افتراق كل طائفة الى فرق ، وحصول العداوة بينهم مخالفة صريحة لتعاليم الله الذى ما انزل الأديان الا لتكون سلاما على الأرض ، ومحبة بين الأفراد والأمم ٠

ومن اجل ذلك كانت رسالة محمد هادفة الى التوفيق بين المتخالفين ببيان الحق الذى حادوا عنه والتحذير من الاختلاف ٠ ولهذا خاطب الله اتباع محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ٠ وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم ، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ٠ فلذلك**

---

(٣) آل عمران : ١٩ ، ٢٠

فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما انزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا ، واليه المصير»(٤)٠

هكذا يقرر القرآن وحدة الدين ، انه يعلنها حقيقة ناصعة تدحض شبه الذين ينكرون الأديان بسبب اختلافها فى جوهرها واصولها ٠

فدعواهم أن كل نبى يأتى من عنده بدين يناقض سابقيه دعوى باطلة وليست من الحقيقة فى شىء ٠ فالدين واحد فى اصوله فى نظر القرآن ، ولكن الأديان تختلف فى تشريعاتها لاختلاف أحوال الأمم الاجتماعية ودرجة استعدادها عقليا(٥) ٠

أضف الى ما سبق : أن الله سبحانه يشرع فى وقت معين أمرا معينا لحكمة ثم ينسخ هذا الأمر ويشرع غيره لحكمة ، وقد يكون النسخ فى حياة النبى نفسه أو بعد وفاته وفى شريعة نبى آخر يعقبه ، وكل ذلك هو الاسلام ، ولا يجوز التمسك بالمنسوخ بعد نسخه ٠ فمثلا : كان السبت لموسى من دين الاسلام ولكنه لما نسخ لم يعد من دين الاسلام ، وكذلك شرع الله الصلاة الى بيت المقدس فى أول الاسلام ـ ثم نسخ ذلك وامر بالصلاة الى الكعبة فمن تمسك بالمنسوخ فقد ترك دين الاسلام ، ولهذا كفرت اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ(٦) ٠

لقد شاء الله ان يختم الأديان والرسالات السماوية بالدين الاسلامى الكامل فأرسل محمدا ﷺ بشريعة تنسخ ما قبلها من الشرائع مظهرا فيها كنه الدين الحق ٠ وهى شريعة توافق ما اقتضاه التطور العقلى للانسان ، وتصلح لكل زمان ومكان ٠ وهى الشريعة المقبولة عند الله تعالى دون سواها « ومن يبتغ غير الاسـلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »(٧) ٠

---

(٤) الشورى : ١٣ ـ ١٥
(٥) روح الدين الاسلامى ص ١٥ ، ١٦
(٦) المدخل الى الثقافة الاسلامية للدكتور محمد رشاد سالم ص ٢١٣
(٧) آل عمران : ٨٥

ان الاسلام حين يأمر المسلمين بالايمان بالرسل والرسالات السماوية جميعا فانه بذلك يعلن وحدة الأصل الذى يأخذ عنه الأنبياء والرسل ، كما يعلن وحدة رسالاتهم ووحدة الانسانية جميعا • يؤيدنا فى هذا قول الله عز وجل : « **قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** »(٨) •

« **آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا واطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير** »(٩) •

ثم ان البيئات الانسانية ليست واحدة ، والظروف التى يمر بها الانسان متغيرة ، وكذلك فان مدارك الانسان فى تطور لنماء التجربة الانسانية وغنى الخبرة البشرية ، ولذلك كان لابد من ملاحظة هذه التغييرات •

هذا بالاضافة الى أن التدرج فى التشريع أمر لازم لاحداث تأثيره وتطبيقه تطبيقا سليما ، وهكذا فان ما يناسب بعض الناس فى ظرف معين أو زمان ما قد لا يناسب الناس فى ظروف وأزمنة اخرى وهذا ما نلاحظه فى جميع نواحى النشاط الانسانى •

فليس معنى تعدد الرسالات السماوية أن هناك تناقضا بين هذه الرسالات وانما هى رعاية الخبير بحالة البشرية الذى يقدم لها فى كل حين ما يتناسب مع مداركها •

ان رسالات الأنبياء طب للعقول وللنفوس تماما كطب الأجسام والأبدان وكما أن الطبيب يلاحظ فى اعطاء الدواء سن المريض وحالته ، ويمنعه من أن يتناول الدواء جرعة واحدة لأنه قد ينقلب سما مميتا ، فكذلك شأن النبوات والرسالات •

---

(٨) البقرة : ١٣٦ (٩) البقرة : ٢٨٥

هذا ‏٠٠ ومع أن الاسلام دين الأنبياء جميعا الا انه قد تعارف الناس على أن كلمة الاسلام يقصد بها اليوم الدين الذى أنزل على محمد ﷺ (١٠) ٠

واذن ، فالاسلام دين عالمى عام لأنه دين البشرية كلها فى كل زمان ومكان وهو كذلك دين الثقلين الانس والجن « **قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ٠ يهدى الى الرشد فآمنا به ، وان نشرك بربنا أحدا** »(١١) ٠

ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله انما خلق الثقلين لعبادته وذلك فى قوله تعالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** »(١٢) ٠

قال المفسرون : أى ليعرفون ويوحدون فقد قال ابن كثير فى تفسيره : « قال ابن جريج : الا ليعرفون ‏٠٠ وقال السدى : من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** »(١٣) هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك ، وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون »(١٤) ٠

* * *

● خصوص الرسالات السابقة :

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو أن الاسلام بصورته الأخيرة الكاملة والتامة هو الدين الذى أرسل به محمد ﷺ فمحمد خاتم الرسل ورسالته خاتمة الرسالات ومعنى هذا أن الرسل قبله كانوا يرسلون الى قومهم خاصة ومن يتتبع آيات القرآن وأحاديث الرسول يدرك بوضوح خصوص الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ تأمل هذا واتل معى قول

---

(١٠) انظر جامع الرسائل لابن تيمية ١/٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، وانظر الجواب الصحيح لابن تيمية طبع المدنى ١/٢ ـ ١٣ وانظر كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٧٥ ، ١٨٥

(١١) الجن : ١ ، ٢ (١٢) الذاريات : ٥٦

(١٣) لقمان : ٢٥

(١٤) تفسير ابن كثير ط : دار الفكر الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٠ جـ ٦ ص ٤٢٥

الله تعالى : فى شأن نوح : « **لقد أرسلنا نوحا الى قومه** »(١٥) ٠

وفى شأن هود يقول : « **والى عاد أخاهم هودا** »(١٦) ٠

وفى شأن صالح يقول : « **والى ثمود اخاهم صالحا** »(١٧) ٠

وفى شأن شعيب يقول : « **والى مدين أخاهم شعيبا** »(١٨) ٠

وفى شأن موسى وقد أرسله الله الى فرعون وملئه والى بنى اسرائيل يقـول : « **ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا** بهـا »(١٩) ٠

« **واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم** »(٢٠) ٠

وفى شأن عيسى وقد أرسله الله الى بنى اسرائيل يقول : « **ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم** »(٢١) ٠

ولكى تتضح تلك القاعدة العامة ــ قاعدة خصوص الرسالات السماوية قبـــل محمد صـلى الله عليـه وسـلم ــ نذكر قوله تعالى فى هـذا : « **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم** »(٢٢) ٠

وهذا يعنى ان كل رسول كان يرسل الى قومه خاصة ٠

غير انه لـمـا اكتمل رشد الانسانية كان لابد من رسالة سماوية وعامة وعالمية فكان الاسلام فى صورته الكاملة وكان صاحب هذه الرسالة العامة هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله ربه الى الناس كافة ٠

ولقد نص القرآن الكريم كما نص الحديث الشريف على هذه العمومية التى اختصت بها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

ونذكر من هذه النصوص من القرآن الكريم قوله تعالى : « **قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** »(٢٣) ٠

---

(١٥) الأعراف : ٥٩
(١٦) الأعراف : ٦٥
(١٧) الأعراف : ٧٣
(١٨) الأعراف : ٨٥
(١٩) الأعراف : ١٠٣
(٢٠) ابراهيم : ٦
(٢١) آل عمران : ٤٩
(٢٢) الروم : ٤٧
(٢٣) الأعراف : ١٥٨

وقوله : « **تبـارك الذى نزل الفرقان على عبـده ليكون للعـالمين نذيرا** »(٢٤) ٠

وقوله : « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** »(٢٥) ٠

وقوله : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** »(٢٦) ٠

ومن الحديث نسوق حديثا صحيحا يصدق الآيات السـابقة ويقف بجانبها دليلا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم ارسل الى الناس جميعا بل الى الانســان والجن :

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل احمر وأسود ٠٠٠٠ »(٢٧) ٠

وفى رواية : « فليس أحمـر ولا أسـود يدخل فى امتى الا كان منهم »(٢٨) ٠

وفى رواية البخارى عن جابر : « وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة »(٢٩) ٠

وفى رواية مسلم عن ابى هريرة : « وارسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون »(٣٠) ٠

وفى شرح هذا الحديث يقول ابن حجر : « قيل : المراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب ، وقيل : الأحمر الانس والأسود الجن »(٣١) ٠

* * *

(٢٤) الفرقان : ١ (٢٥) سبأ : ٢٨
(٢٦) الأنبياء : ١٠٧
(٢٧) صحيح مسلم ٦٣/٢ (كتاب المساجد) ٠
(٢٨) مسند الامام أحمد ٦٥/٤ (طبع المعارف) ٠
(٢٩) صحيح البخارى أول كتاب التيمم ٠
(٣٠) صحيح مسلم ٦٤/٢
(٣١) فتح البارى ٤٣٩/١ ٠ كتاب التيمم الباب الأول ط : السلفية ٠

● الناس سواء فى نظر الاسلام :

ان مما يؤكد عالمية الدعوة الاسلامية وشمولها للناس جميعا معرفة أن الاسلام قد حقق هذه العالمية واقعيا نتيجة نظرته الى الناس نظرة تقوم على المساواة بينهم على اساس وحدة الجنس الانسانى بحيث لا عصبية لجنس أو للون ٠ ان الأمم قبل الاسلام وبعده الى أواخر القرن الثامن عشر أى حتى عهد الثورة الفرنسية كانت تضع فروقا عظيمة بين طبقات الأمة وأفرادها ، بل لقد كانت اديان كثيرة تقر التمايز بين الناس وتجعله امرا محتما على البشرية وما تزال النظرة العنصرية والعصبية تدعو الى التمايز بين الطبقات والأجناس ٠

وقد زعم اليهود أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله واحباؤه ففرقوا فى تشريعاتهم بين اليهود وبين غيرهم ٠

وادعت النازية أن الناس يترتبون على طبقات جنسية ، وأن العنصر الجرمانى يقف على رأس هذه الأجناس ٠

ولعل نظرة على الأمم التى تدعى التقدم والحضارة والدعوة الى وحدة الجنس البشرى تدلنا على ان فكرة التميز وانعدام المساواة لا تزال راسخة فى كثير من مناطق العالم ، فالزنوج فى أمريكا لا يتساوون مع البيض مع أنهم ينتسبون لدولة واحدة ، وما يزال الأبيض الأمريكى يأنف من مجالسة او معاشرة الأسود ٠

وفى افريقيا ما يزال البيض ينظرون الى الزنوج باحتقار لأنهم فى نظرهم مخلوقات أحط منهم بكثير ٠

أما الاسلام فقد قرر المساواة بين الناس واعلن فى وضوح من خلال نصوصه وحدة الجنس البشرى منذ اربعة عشر قرنا ، وضمن ذلك عن طريق تنمية وجدان الفرد وتحرير ضميره ، بالاضافة الى وضع التشريع المناسب الذى يؤمن تحقيق المساواة ٠

لقد أعلن الاسلام القضاء على نظام الأجناس والطبقات والطوائف وترك وراءه كل ما يظنه الناس من أسباب التمايز وعدم المساواة كالجنس واللون والطبقة والغنى ٠

لقد قرر الاسلام وحدة الجنس البشرى فى المنشا والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات أمام الله والقانون ، فى الدنيا والآخرة فلا فضل الا للعمل الصالح ، ولا كرامة الا للأتقى .

انها وثبة اسلامية للانسانية لم يعرف التاريخ لها نظيرا ولا تزال الى هذه اللحظة وستظل قمة لم يرتفع اليها البشر ابدا .

ان ما فرضته القوانين البشرية نظريا فى الثورة الفرنسية وما تلاها حققه الاسلام عمليا فى صورة اعمق واعلا من قبل ذلك بقرون .

لقد قرر الاسلام ان الناس جميعا ينسلون من مصدر واحد :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »(٣٢) .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله أتقاكم »(٣٣) .

فعلام التمايز ما دام الأب واحدا والأم واحدة ؟ ان هذه الآية الكريمة تدعو الناس كافة ، ولا تدعو قبيلة ولا امة بعينها بل تدعو الناس بأصلهم الأول وهو آدم وحواء ومن كان ابوهم واحدا وأمهم واحدة فلا محل لأن يدعى بعضهم السمو على البعض الآخر من ناحية الجنس ، وانهم وان تفرقوا فى البلاد واختلفوا فى الأجناس واللغات والألوان فان تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوة بل توجب عليهم ان يتعاونوا ويتعارفوا والتعارف يدعو الى التآلف والتواد والتضامن لتذليل عقبات الحياة .

وهنا تشعر النفس بسمو هذا المبدأ الاسلامى ، ويكاد هذا الشعور يدفعها الى الأخذ به دون تردد لولا ما يثور فيها من بقايا العصبية التقليدية من ادعاء كل شعب بأنه أولى بالزعامة واحق بالكرامة ، هنا يتلقاه الشطر الأخير الذى تضمنته الآية وهو « **ان اكرمكم عند الله أتقاكم** » اى لا تفاضل بين الناس الا على أساس اعمالهم ، وما يقدمه كل منهم لربه ووطنه والمجتمع الانسانى .

---

(٣٢) النساء : ١

(٣٣) الحجرات : ١٣

تأمل هذا جيدا واتل معى قول الله تعالى :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم • وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »(٣٤) •

هكذا ينظر الاسلام الى الناس على انهم أمة واحدة ملتهم واحدة هى الاسلام والتوحيد ، واذا كان الخالق قد أراد لهم أن يكونوا أمة واحدة فلم التعالى والتطاول وادعاء الشرف والسمو من البعض على البعض الآخر ؟

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمق هذا المعنى فى حجة الوداع وفى آخر خطبة له فيقول : « ان ربكم واحد وان اباكم واحد ، الا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسـود على احمر ، ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى »(٣٥) •

وحين انكر زعماء العرب من قريش على النبى صلى الله عليه وسلم مبدأ المساواة الذى بدأ بتطبيقه فقالوا له : كيف نجلس اليك يا محمد وأنت تجلس الى مثل بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وعمار ، وسواهم من العبيد وعامة الناس ؟ اطردهم ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك • فأبى رسول الله ﷺ • فقالوا : فاجعل لنا يوما ولهم يوما ، فكاد أن يجيب رغبتهم فنزل عليه الوحى :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ،ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين • وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين • واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ••• »(٣٦) •

وتخاصم مرة ابو ذر الغفارى وعبد زنجى فى حضرة النبى عليـــه الصلاة والسلام فاحتد أبو ذر على العبد وقال : « يا ابن السوداء »

(٣٤) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢
(٣٥) رواه الامام احمد •
(٣٦) الأنعام : ٥٢ ـ ٥٤

فغضب النبى عليه الصـلاة والسلام وقال : « ليس لابن البيضـاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح » فوضع ابو ذر خده على الأرض وقال للأسود : قم فطأ على خدى ، تكفيرا له عن قوله(٣٧) .

ولمـا بلغ النبى صلى الله عليه وسلم استهانة احد المنافقين بسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى قام مغضبا وخطب الناس فى المسجد فقال : « يا ايها الناس ان الرب واحد والأب واحد وان الدين واحد وليست العربية باحدكم من اب ولا أم وانما هى اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى »(٣٨) .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يفرق فى الحقوق والمعاملات بين ابيض واسود ، ولا بين حر ومولى ، فقد ولى بلالا على المدينة المنورة وفيها كبار الصحابة ، وبلال مملوك سابق اشتراه ابو بكر واعتقه ، كما ان النبى ولى « باذان » الفارسى على اليمن ولمـا مات ولى ابنه مكانه .

والحق ان هذا السمو الذى تحلى به الاسلام يزداد ظهورا اذا قورن بما يجرى بين أرقى الأمم اليوم من المعاملات التى تنافى الكرامة الانسانية.

فاذا كان العلم وما وصل اليه العالم من الرقى لم يوصلا الانسانية الى ما قرره الاسلام وحمل أهله على العمل به فى بقعة من الأرض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل منها وكان أهلهـا من اشد الناس عصبية وتفاخر بالأنساب افلا يكون هذا من أقوى الأدلة على أن الاسلام دين الانسانية جميعـا ؟

* * *

---

(٣٧) روح الدين الاسلامى تاليف عفيف طبارة ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

(٣٨) ذكر السيد محمد رشيد رضا أن هذا الحديث رواه ابن عساكر عن ابى سلمة بن عبد الرحمن .

الاسلام هو الفطرة

لقد خلق الله البشر وجعـــل معرفته امرا مغروزا فى فطرهم ، بل واشهدهم على انفسهم انه ربهم فشهدوا بذلك . يقول سبحانه :

« فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »(١) .

ومن خلال هـذا النص القرآنى نستطيع أن ندرك فى وضوح ان الاسلام هو الفطرة وهـذا أرجح الأقوال للعلمـاء فى فهم معنى كلمة الفطرة التى جاءت فى القرآن والسنة .

وعلى هذا يفهم حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول ابو هريرة : اقراوا ان شئتم : « **فطرة الله التى فطر الناس عليها** »(٢) .

فكلمة الفطرة فى آية سورة الروم ، وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم تعنى الاسلام .

وعلى هذا فكل مولود من بنى آدم يولد على الاسلام الذى هو الفطرة ولكن أبواه ومن يحيط به يغيرون فطرته الى اديان اخرى ، شانه فى ذلك شأن البهيمة التى تولد سليمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها وانما يحدث الجدع فيها بعد الولادة بأن يقطع بعض الناس اذنها او انفها او غير ذلك .

ومن يقرأ كتاب « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية يرى انه قد ناقش فى هذا الكتاب الأقوال المختلفة التى قالها بعض العلماء فى تفسير معنى الفطرة وخصص لذلك مئات الصفحات ولكنه كان مع الرأى القائل بأن الاسلام هو الفطرة .

---

(١) الروم : ٣٠

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى وأحمد وابن حبان .

ويؤكد ابن تيمية رايه بحديث آخر ثبت فى صحيح مسلم وغيره فيما يرويه عن ربه عز وجل : « ... وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم اتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم وأمرتهم ان يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا »(٣) .

ويذكر ابن تيمية أن هــذا الحديث صريح فى ان الله تعالى خلق عبــاده مسلمين حنفاء وان الشــياطين ازالتهم عما كانوا عليه وحولتهم الى الكفــر .

وقول الله تعالى فى الآية السابقة ـ آية الروم ـ : « **لا تبديل لخلق الله** » يعنى ان الناس لا يخلقون على غير الفطرة ، ولا يعنى ان فطرهم لا تتبدل ولا تتغير بعد ولادتهم بل نفس الحديث يبين ذلك اذ فيه أن البهيمة تولد جمعاء ـ سليمة كاملة الأعضاء ـ وليست جدعاء اذ ان الجدع ـ وهو قطع بعض اعضائها مثل الأنف والأذن ـ انما يحدث بعد ولادتها بواســطة الناس .

ولعل أهم ما فى كلام ابن تيمية فى هــذا الشأن فى كتابه السابق هو بيان الأصل هام هو أن الانسان اذا اتبع فطرته المستقيمة فلا يمكن ان يقول أو يعتقد او يعمل الا ما هو موافق للحق والخير ولكن اتباع الأهواء والشياطين هو الذى يحول الانسان الى الباطل والشر .

ومن اجل ذلك . يذكر ابن تيمية فى غير موضع(٤) أن الرسل يأتون بالشرائع التى ترد الناس الى فطرتهم الصحيحة بحيث تقوى هذه الفطر وتبعد عنها ما يفسدها « فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها » .

---

(٣) صحيح مسلم ١٩٧/٤ (ط : فؤاد عبد الباقى) القــاهرة ١٩٥٥ : كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا اهل الجنة واهل النار .

(٤) انظر مجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيميه ص ٢٨١ ، ٢٨٢ طبع بمباى ـ الهند سنة ١٩٥٤ ومجموع فتاوى ابن تيمية ، الرياض ١٠ /١٤٦ ، ١٤٧

وعلى هـذا . فكل البشر - بل كل المخلوقات فى هـذا الكون - تعرف ربها وتسلم له انها تسبحه وتسجد له طوعا أو كرها ، ولذلك لا يشك فى الله الا فاسدى الفطر : « **أفى الله شك فاطر السموات والأرض** »(٥) .

والذين يشركون بالله أو ينحرفون عن معرفته وتوحيده انما ينكرون لحقيقة العبودية التى خلقوا من أجلها ، وهم كذلك يعرضون عن هداية الرسل الذين جاءوا لتذكيرهم بما فى فطرهم من ايمان وتوحيد ، اما عنادا واستكبارا واما اتباعا للهوى وهم بذلك يقترفون أعظم الذنوب واكبر الكبائر . وصدق الله القائل : « **ان الشرك لظلم عظيم** »(٦) .

ان الله تبارك وتعالى فطر بنى آدم على الدين الصحيح دين الاسلام وهـذا ما نلمس آثاره فى جميع الشـعوب والأمم ، فان عقيدة التوحيد الصحيحة هى العقيـدة التى انتشرت فى كل الأمم ، وفى كافة الأزمان ولكن ينحرف الناس عنها قليلا أو كثيرا حينا من الزمن فيرسل الله تعالى اليهم الرسل ليعيدوهم الى التوحيد الصحيح ، وقد قال العلماء المحققون كما يذكر معجم « لاروس » للقرن العشرين : « ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجنـاس البشرية حتى أشـدها همجية وأقربها الى الحيـاة الحيوانية ... وان الاهتمام بالمعنى الالهى وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسان »(٧) .

ويقول المفكر الفرنسى هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعات بغير ديانة »(٨) .

ان الذين ظنوا ان المجتمعات البشرية بدات بعقائد الشرك ثم تطورت وترقت الى التوحيد مخطئون ، لأن الأدلة العلمية الصحيحة تثبت ان

---

(٥) ابراهيم : ١٠ (٦) لقمان : ١٣
(٧) كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٢ طبع دار القلم ، الكويت ١٩٧٠ .
(٨) المرجع السابق ص ٨٣

عقيدة التوحيد قديمة قدم الانسان ، وأن آثارها موجودة عند القبائل الهمجية كما توجد عند الشعوب المتحضرة(٩) ·

وبعد ·· فهذه صورة موجزة عن عقيدة التوحيد اردت من كتابتها فى هـذا التمهيد اعداد القارىء لتتبع هـذه العقيدة فى مراحلها المختلفـة بالتفصيل كما جاء بها رسل الله صلوات الله وسـلامه عليهم وكما نطق بها القرآن الكريم ·

* * *

(٩) انظر كتاب « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد · فصل أطوار العقيدة الالهية ص ٢٨ وانظر كذلك كتاب « المدخل الى الثقافة الاسلامية » للدكتور محمد رشاد سالم ص ١٨٨ ·

الباب الأول

عقيدة التوحيد

في الرسالات السماوية الخاصة

- آدم عليه السلام كان نبيا موحدا ·
- رســـالة نوح عليه السلام ·
- رســـالة صالح عليه السلام ·
- رســـالة ابراهيم عليه السلام
- دعـوة لوط عليه السلام ·
- التوحيد بعد ابراهيم عليه السلام ·
- يعقـوب عليه السلام يدعـو الى التوحيد ويوصى به ·
- مرحلة جديدة للتوحيد على يـد يوسف عليه السلام ·
- شـعيب عليه السلام يدعـو قومه للتوحيـد ·
- رســـالة موسى عليه الســلام ·
- من انبياء بنى اسرائيل : داوود وسـليمان ·
- آخـر انبياء بنى اسرائيل عيسى عليه السلام ·



الفصل الأول

آدم عليه السلام كان نبيا موحدا

يتعرض القرآن الكريم فى كثير من سوره لآدم عليه السلام فيتناول خلقه واختياره خليفة فى الأرض وخلق زوجه منه وسكناهما الجنة ثم هبوطهما منها الى الأرض الى غير ذلك ، ولعل اكثر السور القرآنية تفصيلا لهذه الأمور سورة البقرة · ففيها عرض لما حدث قبل خلق آدم ومن قول الله للملائكة : « **انى جاعل فى الأرض خليفة ··** »(١) ·

ومهما يكن من خلاف للعلماء حول معنى كلمة خليفة وعمن تكون الخلافة · وسواء اكان المراد بالخليفة آدم ومن يكون أهلا للخلافة من ذريته عن الله فى عمارة الأرض بالعدل والتوحيد وتنفيذ احكام الله بين الناس فيها ·

أو كان المراد به النوع الانسانى كله على معنى ان يخلف بعضه بعضا على ظهر الأرض والقيام بعمارتها وهو ما يشير اليه قوله تعالى : « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات** »(٢)·

أو كان المراد آدم يكون خليفة عمن كان يسكن الأرض قبله من الجن سواء اكان المراد بالخليفة هذا أو ذاك فان من الثابت فى كتاب الله أن الله اخبر الملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة · فأجاب الملائكة ربهم بقولهم : « **اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون** »(٣) ·

وخلق الله آدم من تراب ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، ثم اراد ان

---

(١) البقرة : ٣٠   (٢) الأنعام : ١٦٥
(٣) البقرة : ٣٠

يظهر فضله وشرفه للملائكة التى كانت تضمر فى نفسها ان الله لن يخلق خلقا اعلم منهم فعلمه الأسماء كلها بأن عرض عليه الأشياء وسماها له بأسمائها ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم على سبيل التعجيز : « **أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين** »(٤) ولم يملك الملائكة فى هذا الموقف الا ان يعترفوا بالعجز مفوضين ما لم يعلموه الى الله قائلين : « **سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم** »(٥) .

وفى هذا الموقف صدر الأمر الالهى للملائكة بالسجود لآدم اعترافا بفضله وتفوقه ، وسجد الملائكة كلهم امتثالا لأمر الله . الا ابليس ثم أمر الله آدم ان يسكن الجنة هو وزوجه حواء التى خلقها من ضلع من اضلاعه اليسرى ليسكن اليها ، وأباح لهما ان يأكلا من الجنة رغدا حيث شاءا الا شجرة واحدة نهاهما عن قربانها اى عن جنسها كله .

اما ابليس لعنه الله فقد دفعه حسده لآدم الى الامتناع عن السجود له ولم يستجب لأمر ربه استكبارا ، فطرده الله وكتب عليه لعنته الى يوم الدين ، فطلب منه ان يؤخر اجله الى يوم يبعثون ليتمكن من اغواء آدم وذريته . فأجابه الله الى طلبه وقال له : « **فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم** »(٦) .

ووجد ابليس الفرصة مواتية لاغواء آدم وزوجه فتوجه اليهما فى الجنة فى صورة الناصح وقال لهما : « **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين** »(٧) . فدلاهما بغرور ووقعا فى الخطيئة ، وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه واهبطه الى الأرض ليبتليه وذريته وقال : « **اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين** »(٨) .

ومهما يكن من امر قصة آدم فان الذى يتعلق منها بموضوعنا آيتان

---

(٤) البقرة : ٣١
(٥) البقرة : ٣٢
(٦) الحجر : ٣٧ ، ٣٨
(٧) الأعراف : ٢٠ ، ٢١
(٨) البقرة : ٣٦

ذكرتا فى سورة الأعراف : تلك التى تناولت بعد بدايتها بقليل أمر الله للملائكة بالسجود لآدم وامتناع ابليس وأمر آدم وزوجه أن يسكنا الجنة ووسوسة الشيطان لهما الى غير ذلك ٠

اما الآية الأولى فهى قوله تعالى : « **واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ٠ أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، افتهلكنا بما فعل المبطلون** »(٩) ٠

وفى تفسير هذه الآية يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره :

« يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من اصلابهم شاهدين على انفسهم أن الله ربهم ومليكهم وانه لا اله الا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ٠ قال تعالى : « **فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله** »(١٠) ٠

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ــ وفى رواية : على هذه الملة ــ فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : انى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم » ٠

وقال الامام أبو جعفر بن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب اخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال : « غزوت مع رسول الله ﷺ اربع غزوات فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال : « ما بال اقوام يتناولون الذرية » ؟ فقال رجل : يا رسول الله ، اليسوا ابناء المشركين ؟ فقال : « ان خياركم ابناء المشركين ، الا انها ليست نسمة تولد الا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى

---

(٩) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ (١٠) الروم : ٣٠

يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » ، قال الحسن : ولقد قال الله فى كتابه : « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم** »(١١) الآيـــة .

قال ابن كثير بعد هذا : « وقد وردت احاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم الى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وفى بعضها الاشهاد عليهم بأن الله ربهم » .

وبعد أن ذكر ابن كثير هذه الآثار عقب على ذلك بقوله :

« فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار .

وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو الا فى حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وفى حديث عبد الله بن عمرو ، وهما موقوفان لا مرفوعان ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : ان المراد بهذا الاشهاد انما هو فطرهم على التوحيد كما تقـدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ، ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع ، وقد فسر الحسن الآية بذلك .

قالوا : ولهذا قال : « **واذ أخذ ربك من بنى آدم** » ولم يقل من آدم ، « **من ظهورهم** » ولم يقل من ظهره ، « **ذريتهم** » اى جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى : « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** »(١٢) وقال : « **كما انشأكم من ذرية قوم آخرين** »(١٣) .

ثم قال : « **واشهدهم على انفسهم الست بربكم ، قالوا بلى** »(١٤) أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا .

قال : والشهادة تكون تارة بالقول ، كقوله تعالى : « **قالوا شهدنا على انفسنا** »(١٥) الآية . وتارة تكون حالا ، كقوله تعالى : « **ما كان**

---

(١١) الأعراف : ١٧٢
(١٢) الأنعام : ١٦٥
(١٣) الأنعام : ١٣٣
(١٤) الأعراف : ١٧٢
(١٥) الأنعام : ١٣٠

للمشركين ان يعمروا مساجد الله شـاهدين على انفسـهم بالكفر »(١٦) اى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا انهم قائلون كذلك . وكذلك قوله تعالى : « **وانه على ذلك لشـهيد** »(١٧) كما ان السـؤال تارة يكون بالمقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : « **وآتاكم من كل ما سالتموه** »(١٨) .

قالوا : ومما يدل على ان المراد بهذا انه جعل الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل احد يذكره ليكون حجة عليه .

فان قيل : اخبار الرسـول ﷺ كاف فى وجوده . فالجواب : ان المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هـذا وغيره وهـذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على ان الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهـذا قال : « **أن تقولوا** » اى لئـلا تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هـذا التوحيد غافلين » .

ومن خلال تتبعنا لهذا القول فى تفسير الآية من جانب ابن كثير نستطيع ان نخرج بالنتيجة التالية :

انه يرى ان المراد بأخـذ الذرية من ظهور بنى آدم هو اخراجها بالولادة الى هـذه الحياة ، وان المراد باشهادهم على انفسهم بربوبية الله لهم هو ما نصب لهم من الدلائل والآيات الشاهدة بذلك فى الآفاق وفى انفسهم ، وان المراد من اقرارهم بذلك هو ما فطروا عليه من التوحيد والاعتراف بالصانع جل شانه .

وليس هـذا رأى ابن كثير وحـده بل هو رأى كثير من اصحاب التفاسير وخاصـة المنتسبين منهم الى التفسير بالرأى ، كما هو راى تلميذه العلامة زين الدين الحنفى شارح الطحاوية فقد قال كلاما يشبه كلام شيخه عند شرحه لقول صاحب الطحاوية : « والميثاق الذى اخذه الله تعالى من آدم وذريته حق » .

---

(١٦) التوبة : ١٧

(١٧) العاديات : ٧

(١٨) ابراهيم : ٣٤

ومما قاله فى هذا الشأن : « واعلم ان من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره ، واشهدهم على انفسهم ثم اعادهم كالثعلبى والبغوى وغيرهما ، ومنهم من لم يذكره بل ذكر انه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها الله فيهم كالزمخشرى وغيره ٠

ومنهم من ذكر القولين كالواحدى والرازى والقرطبى وغيرهم ، ولكن نسب الرازى القول الأول الى اهل السنة والثانى الى المعتزلة ٠

ولا ريب ان الآية لا تدل على القول الأول اعنى ان الأخذ كان من ظهر آدم ، وانما فيها الأخذ من ظهور بنى آدم ٠ وانما ذكر الأخذ من ظهر آدم والاشهاد عليهم هناك فى بعض الأحاديث وفى بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار كما فى حديث عمر رضى الله عنه ، وفى بعضها الأخذ واراءة آدم اياهم من غير قضاء ولا استشهاد كما فى حديث ابى هريرة ٠

والذى فيه الاشهاد على الصفة التى قالها اهل القول الأول موقوف على ابن عباس وعمر وتكلم فيه اهل الحديث ، ولم يخرجه احد من اهل الصحيح غير الحاكم فى المستدرك على الصحيحين ، والحاكم معروف تساهله رحمه الله » ٠

هكذا يناصر شارح الطحاوية العلامة زين الدين الحنفى مذهب أستاذه الحافظ ابن كثير فيرى كما راى استاذه من قبل ان الأخذ الذى ورد فى الآية لم يكن من ظهر آدم وانما الأخذ الذى فى الآية هو الأخذ من ظهور بنى آدم ٠٠٠ الخ ٠

وفيما ارى ان هذا الراى بعيد عن ظاهر الآية ، والقائل به لا شك يجهد نفسه فى تأويلها اذ لا بد فيه من تاويل الأخذ من الظهور بالابراز الى الوجود وتاويل الاشهاد بنصب الأدلة ، وتأويل شهادتهم على انفسهم باقرار الفطرة وهذا تكلف فى التأويل ٠ فضلا عن ان هذا القول لم يقل به احد من السلف بل كل ما قالوه فى هذا الشأن انما يوافق الراى الأول وهو ان الأخذ كان من ظهر آدم ٠

اضـف الى ذلك ان قول ابن كثير والعلامة زين الدين الحنفى شارح الطحاوية ان الأحاديث التى تضمنت الاشهاد الحقيقى احاديث موقوفة عن الصحابة لا مرفوعة · قول يبطله ما ذكره الشيخ احمد شاكر فى هامشه على شرح الطحاوية وذلك حين يقول رحمه الله : « حديثا ابن عباس وعمر صحيحان مرفوعان ، وتعليلهما بالوقف عن ابن عباس وعمر غير سديد كما بينا ذلك فى شرحهما فى المسند » ·

ولو سلمنا بأن الحديثين موقوفان عن عمر وابن عباس فان هـذا مما يقوى الراى الأول خاصة وانه متفق مع ظاهر الآية ، ومن المعروف ان مثل هـذا مما لا يقوله الصحابى بالرأى لأنه من الأخبار التى لا تعلم الا من جهة صاحب الشرع ·

هذا ·· ولما كان حديث عمر وابن عباس يوافقان الراى الأول لذلك سأذكرهما بنصهما لنرى مدى هذه الموافقة :

قال الامام احمد : حدثنا روح ـ هو ابن عبادة ـ حدثنا مالك وحدثنا اسحاق : حدثنا مالك عن زيد بن أبى انيسة ان عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب اخبره عن مسلم بن يسار الجهنى ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : « **واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ، قالوا بلى** »(١٩) الآية ·

فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنـة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » ، فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : « اذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، واذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال

---

(١٩) الأعراف : ١٧٢

اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخله به النار » .
هذا هو نص حديث عمر رضى الله عنه .

وأما حديث ابن عباس فيقول الامام احمد رحمه الله : حدثنا حسين ابن محمد ، حدثنا جرير ــ يعنى ابن حازم ــ عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ان الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : « **الست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هـذا غافلين . أو تقولوا** » ــ الى قوله : « **المبطلون** »(٢٠) .

ونحن من خلال هذين الحديثين نستطيع ان ندرك فى جلاء مدى موافقتهما الرأى الأول القائل ان الأخذ فى الآية كان من ظهر آدم .

ثم ان القائلين من المفسرين كابن كثير بأن الآية تصرح بالأخذ من ظهور بنى آدم وهـذا مغاير للأخذ من ظهر آدم نفسـه كما تصرح به الأحاديث ، واذن فلا تصلح الأحاديث حجة فى تفسير الآية .

أقول فى الجواب : ان أخذ الذرية من ظهور بنى آدم قبل خلقهم هو بعينه أخذها من ظهر آدم . لأن آدم هو الأصل الذى تجمعت فيه كل أفراد النوع الانسانى بالقوة ، والله سبحانه قد علم كل ما سيخرج منه من ذرية الى يوم القيامة فاستخرجها واشهدها .

وحين يحتج هؤلاء المفسرون بأن الاشهاد الذى هذا شأنه لا تقوم به الحجة لأن أحدا ممن أخذ عليهم هذا الميثاق لا يذكره فى حين ان الآية تفيد ان الله احتج عليهم به .

ونحن أمام هذا الاحتجاج يمكننا أن نقول : ان الحجة تكون فى تذكير من اخذ عليهم الميثاق بالاشهاد على السنة الرسل عليهم السلام ، وليست

---

(٢٠) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣

فى نفس الاشهاد . وكونهم يكذبون الرسل هـذا لا ينفى قيام الحجة عليهم كما فى المعجزات ، فقد كذبوا بمعجزات الرسل مع ان الحجة قد لزمتهم بها . ومما يؤيد هذا قوله تعالى فى الآية : « **ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هـذا غافلين** » .

هذا فيما يتعلق بالآية الأولى من الآيتين اللتين اخترناهما من سورة الأعراف لتأييد ما قلناه فى هذا المجال . من أن عقيدة التوحيد قديمة قدم الانسانية .

وقبل أن نتعرض لبيان الآية الثانية من سورة الأعراف يجدر بنا أن نشـير الى أن آدم عليـه السـلام كان نبيا مكلما وان اختلف العلمـاء فى ارسـاله وسـوف نتناول هـذا الاختـلاف بعـد عرضنا لشرح آية الأعراف الثانية .

وقبل شرح هـذه الآية يجدر بنا أن نشير أيضا الى ان العلمـاء قد أجمعوا على أن الكفر ممتنع على الأنبياء والمرسلين . قبل البعثة وبعدها .

أما الكبائر فاختلفوا فيها : فمن قائل انها جائزة قبل البعثة لا بعدها ومن قائل انها ممتنعة منهم مطلقا قبل البعثة وبعدها .

وأما الصغائر فجائزة بعد البعثة ما لم تكن خسيسة لا تصدر الا من سفلة الناس كسرقة لقمة واكل فى الأسواق فتمتنع .

وقد يقال : ان الرسل قبل بعثتهم لا تكليف عليهم ولا على قومهم فلا تعرف الكبائر ولا الصغائر الا بعد البعثة . نعم ان الكفر بالله يعلم من العقل وبالبداهة حتى قبل البعثة فيحكم العقل انه ممتنع ، وعلى هذا فكيف يقال : ان الكبائر ممتنعة عليهم قبل البعثة ؟

ويجاب بأن الكبائر وان علمت بعد البعثة فصدورها منهم قبل البعثة عند من يقول بامتناعها عليهم مرده الى النفرة منهم وربما وجد اقوامهم منفذا بذلك للطعن فيهم بأنهم كانوا يفعلون ما حرموه .

هذا وقد ورد فى قصص القرآن وفى بعض الأحاديث ما يوهم صدور الذنب منهم .

والملخص من ذلك : انه ان وجد محمل قريب لتأويل ذلك حمل عليه والا قيل : ان ذلك كان منهم قبل البعثة . هذا فى القرآن والحديث المتواتر، اما اذا كان الحديث آحادا فانه يجب رده لأن نسبة الخطأ الى الرد أهون من نسبة الذنب الى الرسول .

ولعل الذى دفعنى الى هذا الكلام فى هذا المجال هو أن الآية التالية من سورة الأعراف والتى سنتناولها بالبيان هى من النصوص التى يوهم ظاهرها عدم عصمة الانبياء وهى قوله تعالى : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون** »(٢١) .

فى هذه الآية ينبه الله سبحانه وتعالى على أنه خلق جميع النـــاس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما مصداقا لقوله تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** »(٢٢) وقوله سبحانه : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا** »(٢٣) .

وفى الآية التى معنا يبين الله أنه خلق حواء من آدم ليأنفها ويسكن بها « **وجعل منها زوجها ليسكن اليها** » . فليست هناك ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، ومن أجل هذا ذكر المولى عز وجل أن الساحر ربما توصل بكيده الى التفرقة بينهما « **فلما تغشاها** » اى وطئها « **حملت حملا خفيفا** » وذلك اول الحمل لا تجد المرأة له ألمـــا انما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة . هكذا يقول ابن كثير فى تفسيـــره ، ثم يقول : « وقوله :

---

(٢١) الأعراف : ١٨٩ ، ١٩٠ (٢٢) الحجرات : ١٣
(٢٣) النساء : ١

« **فمرت به** » قال مجاهد : استمرت بحمله ، وروى عن الحسن وابراهيم النخعى والسدى مثله ، وقال ميمون بن مهران عن ابيه : استخفته .. وقال العوفى عن ابن عباس : استمرت به فشكت أحملت أم لا « **فلما أثقلت** » صارت ذا ثقل بحملها ، وقال السدى : كبر الولد فى بطنها « **دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا** » اى بشرا سويا « **لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون** » . وهنا نرى المفسرين يذكرون أحاديث أذكر منها ما رواه الامام احمد فى مسنده قال : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة ان النبى ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » .

وعلى الرغم من أننا نلمح محاولة ابن كثير للخروج عن ظاهر الآية وقوله عن الحديث الذى رواه احمد فى مسنده والذى سبق ذكره آنفا بأنه معلول . وانكاره للأحاديث الموافقة للآية ونسبته اياها الى اخبار أهل الكتاب . وعلى الرغم أيضا من أننا نؤيده فى رأيه فى هذا الشأن الا أنه كان يمكنه أن يحاول الدفاع عن آدم وحواء فيبين أن شركهما كان فى التسمية لا فى العبادة .

ولعل صاحب تفسير صفوة البيان الشيخ حسنين مخلوف كان واضحا تماما فى تفسيره لهذه الآية :

لقد قال : « نزلت الآية فى تسمية آدم وحواء ولدهما بعبد الحارث بوسوسة ابليس ـ لحواء وكان يسمى بين الملائكة الحارث ـ حين علم موت أولادهما وحرصهما على حياتهم فزين لها أنها اذا سمت ابنها بهذا الاسم عاش ففعلت واقرها آدم على هذه التسمية وهو ليس شركا فى العبادة وانما هو شرك فى التسمية وهو خلاف اللائق بهما ولذا عوتبا عليه ، والتعبير بالجمع فى قوله : « **شركاء** » لأن من استساغ الشركة فى التسمية فى واحد استساغها فى الأكثر .

وقيل : المراد بالنفس الواحدة آدم وبالزوج حواء وقد دعوا ربهما حين

اثقلها الحمل لئن آتيتنا ولدا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعل اولادهما من بعدهما لله شركاء فيما آتى أولادهما من الأولاد ٠

وقال فى المواقف « وقد يتمسك فى ذنبه - أى آدم بقوله تعالى : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا ٠٠** » الآية ٠

والجواب : أن اكثر المفسرين على أن الخطاب لقريش والنفس الواحدة قصى ، وجعل منها زوجها أى بجعلها عربية من جنسه واشراكهما تسميتهما ابناءهما بعبد مناف وعبد العزى وعبد الدار وعبد قصى فليس الضمير فى « **جعلا** » لآدم وحواء ٠

وان صح انه لآدم فأين الدليل على الشرك فى الألوهية ؟ وفعله هو الميل الى طاعة الشيطان وقبول وسوسته مع الرجوع عنه الى الله وذلك غير داخل تحت الاختيار أو لعله قبل النبوة » ٠

وقد استدرك شارح المواقف السيد الشريف الجرجانى على هذا الجواب الأخير بقوله : « فان قلت قد مر امتناع الكفر على الأنبياء مطلقا قلت : معنى اشراكهما بالله انهما اطاعا ابليس فى تسمية ولدهما بعبد الحارث كما فى القصة وليس ذلك كفرا بل ذنبا يجوز صدوره قبل النبوة ، وقد يقال : معنى « جعلا » انه جعل أولادهما على حذف المضاف كما يدل عليه جمع الضمير فى « **يشركون** » ٠

● **والخلاصة :**

ان اغلب المفسرين فى هذه الآية قالوا انها تعنى قريشا والضمير فى قوله « **خلقكم** » لقريش والنفس الواحدة نفس قصى الذى ننسب اليه قريش والزوجة من نفسه وجنسه لأنها عربية مثله ، واشراكهما بالله انهما سميا اولادهما بعبد اللات وعبد العزى وعبد الدار وعبد مناف الخ ٠

وعلى ذلك فلم تكن الآية فى حق آدم حتى يقال ان القرآن نسب الشرك اليه مع أنه ممتنع قبل البعثة وبعدها باتفاق كما أسلفنا ٠

على ان بعض المفسرين قال : لا مانع من ان تكون الآية فى حق آدم وزوجه وأن المراد بقوله « **جعلا له شركاء فيما آتاهما** » انهما سميا ولدهما بعبد الحارث تلبية لوسوسة الشيطان فلم يكن منهما شرك بالله اعتقادا وعلى ذلك يكون ذنبا صغيرا ، أو يقال : ان الكلام على تقدير مضاف اى جعل أولادهما له شركاء ، فالشرك الحقيقى من أولادهما لا منهما . كما سبق .

* * *

الفترة من آدم الى نوح عليهما السلام

انتقل آدم عليه السلام الى جوار ربه تاركا لأبنائه شريعة وعقيدة . شريعة يعملون بها ويسيرون على منوالها ، وعقيدة قوامها توحيد الله واسلام الوجه له .

وآدم وان كان العلماء قد اختلفوا فى انه نبى او رسول الا ان الراى الصحيح انه كان نبيا مكلما ، ويؤيدنا فى هذا حديث الشفاعة من قول الناس لنوح عليه السلام : أنت أول رسول بعث الى أهل الأرض ...

وما دام ذلك كذلك فان الله سبحانه قد شرع له ولأولاده دينا يتعبدون به ويسيرون فى حياتهم على هديه .

غير أن هذه الحقبة من الزمان والتى امتدت من بعد موت آدم الى أن ظهر نوح يدعو قومه الى عبادة الله الواحد وترك ما أحدثوه من عبادة الأوثان كانت حقبة يكتنفها الغموض ولا نجد ما ينبؤنا عنها الا آية من آيات القرآن الكريم وهى قوله تعالى : « **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** »(١) .

ولا جدال فى أن الآية تشير الى أن الناس كانوا أمة واحدة ، فهل هذه الأمة الواحدة كانت متفقة على الاسلام والتوحيد ؟ أم كانت واحدة فى الشرك والضلال ؟

ان المفسرين أمام هذه الأمة الواحدة التى وردت فى الآية مختلفون فمنهم من رجح أنها كانت واحدة فى الشرك والضلال ومن هؤلاء الامام

---

(١) البقرة : ٢١٣

محمد عبده ، ومنهم من رجح انها كانت متفقة على الاسلام والتوحيد ومن هؤلاء صاحب صفوة البيان الشيخ حسنين مخلوف ، والعلامة الحافظ ابن كثير . واليك طرفا مما قاله انصار كل فريق لنرى ايهما اجدر بالقبـول .

* * *

رأى الشيخ محمد عبده فى الآية

اما فيما يتعلق بالاتجاه الأول :

فنرى الشيخ محمد عبده يقول فى تفسير هذه الآية نقلا عن تفسير المنار لتلميذه الأستاذ رشيد رضا :

« تطلق الأمة فى كتاب الله تعالى بمعنى الملة اى العقائد واصول الشريعة كما فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : « **ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون** »(٢) بعد ما ذكر من شأن جماعة الأنبياء صلوات الله عليهم وكما قال فى سورة المؤمنين : « **يا ايها الرسـل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم . وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون** »(٣) رجح كثير من المفسرين ان المراد من الأمة فى الآيتين الملة اى العقائد واصول الشرائع ، اى ان جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد كما قال : « **ان الدين عند الله الاسلام** »(٤) .

وقال كثير منهم : ان الأمة فى هذه الآية بمعنى الجماعة كما هى فى قوله تعـالى : « **وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون** »(٥) اى جماعة ، وكما فى قوله : « **وتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر** »(٦) ولا تكون بمعنى الجمـاعة مطلقا ، وانما هى بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع يعتبرون بها واحدا ،

---

(٢) الأنبياء : ٩٢
(٣) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢
(٤) آل عمران : ١٩
(٥) الأعراف : ١٨١
(٦) آل عمران : ١٠٤

وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة ، وتكون بمعنى السنين كما فى قوله تعالى : « **ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة** »(٧) وفى قوله : « **وادكر بعد أمة** »(٨) . وبمعنى الامام الذى يقتدى به كما فى قوله : « **ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا** »(٩) . وبمعنى احدى الأمم المعروفة كما فى قوله : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس** »(١٠) .

وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة كما ذكرنا ، وانما خصصه العرف تخصيصا .

وقد حمل جمهور من المفسرين لفظ الأمة فى هذه الآية على الملة ثم اختلفوا فيم كانت الملة . فقال جمهورهم : انها ملة الهدى والدين القويم فيكون معنى الآية فى رأيهم « **كان الناس أمة** » أى ملة « **واحدة** » قيمة الدين صحيحة العقائد جارية فى أعمالها على أحكام الشرائع « **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** »(١١) .

ولما وجدوا أن المعنى لا يكون قويما لأنه لا معنى لارسال الرسل الى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما يختلفون فيه ، اد لا يتأتى الاختلاف الذى يحتاج فى رفعه الى رسالة الرسل مع استقامة العمل والوقوف عند حدود الشرائع قالوا : لابد من تقدير فى العبارة فيكون الكلام : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، والقرينة على هذه القضية المقدرة قوله فيما بعد « **ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** » وانت ترى أن هذا بمنزلة أن تقول : كان زيد عالما فبعثت اليه من يعلمه ما كان نسيه من معلوماته ، أو كان عاملا فأرسلت اليه من يعظه فى العودة الى ما ترك من عمله وتقول ان كلامى على تقدير كان عالما فنسى ، أو كان عاملا فترك العمل فبعثت اليه أو أرسلت اليه الخ ، وهو مما لا يقبله ذوق عربى .

---

(٧) هود : ٨
(٨) يوسف : ٤٥
(٩) النحل : ١٢٠
(١٠) آل عمران : ١١٠
(١١) البقرة : ٢١٣

فاذا كنت لا تراه لائقا بكلامك فكيف تجده لائقا بكلام الله ابلغ كلام وأولى قول يملك العقول والأفهام ؟

ومما استدلوا به على صحة قولهم ان آدم عليه السلام كان نبيا وكان أولاده على ملته هادين مهتدين الى ان وقع التحاسد بين ولديه وكان من قتل احدهما للآخر ما هو معروف ، وأن الانسان يولد على الفطرة السليمة والدين الحق وانما يعرض له ما ينحرف به عن الفطرة من تحكم الأهواء واغراء الشهوات ورين الشبهات ونحو ذلك ، فلا ريب يكون الانسان طور أول كان فيه خيرا عادلا واقفا عند الحق فيما يعتقد وما يعمل ثم يعرض عليه ما يعرض من الميل الى الشر والقبيح من الأعمال ، ولكن هذه الأدلة لا تغير شيئا مما ذكرناه مختصا بتاليف الكلام .

على أنه قد عرض على اولاد آدم من بعده أطوار كثيرة بلغ بهم الجهل فى بعضها أن كانوا ملة واحدة فى الكفر وفساد الأعمال كما كانت الحال لعهد نوح وعهد ابراهيم من بعده .

والآية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة ، وغاية ما فى الأمر ان يكون النبيون المبعوثون مخصوصين بغير آدم أو نوح مثلا اذا حملت الأمة الواحدة على أمة الضلال وملة الفساد والاعتلال ، ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفى مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن الى ان الأمة الواحدة أمة الضلال التى لا تهتدى بحق ولا تقف فى أعمالها عند حد شريعة ، واحتجوا على قولهم بهذا التعقيب فى الآية ، بأنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة ، ولا تكون كذلك حتى تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة الى ارسالهم ليحكموا بينهم فى الاختلاف الذى يقع فيهم بسبب الفساد فى العقائد والذهاب مع الأهواء الضالة فى الأعمال واعتداء بعضهم على بعض لذلك ، وانتهاكهم حرمة ما أمر اله برعاية حرمته ، فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدة فى الباطل حتى يرد عليه الحق فيزهقه .

وأما لو كانت الأمة واحد فى الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر ، ودفعوا ما يقال من ان آدم كان نبيا وكان من أولاده من بقى على شريعته ، فكيف يقال ان الناس كانوا

امة واحدة على الباطل ؟ دفعوه بأن الحكم على الغالب ، فقد كان الناس لعهد نوح كفارا الا القليل منهم ومن المعروف انه يقال دار الكفر لمن كان اغلب سكانها كفارا وان كان فيها مسلمون ٠

وقد يجاب بما تقدم ذكره من تخصيص النبيين بما بعد آدم ونوح من ابراهيم ومن بعده ، ولكن المعنى كما تراه ليس مما تتطمئن اليه النفس بعد النظر الى آدم ورسالته ومن بقى من أولاده على ملته ٠

وقال أبو مسلم والقاضى أبو بكر : ان وحدة الأمة كانت فيما هو من مقتضى اصل الفطرة من الأخذ بما يرشد اليه العقل فى الاعتقاد والعمل فكان الناس يهتدون بعقولهم والنظر المحض فى الآيات الدالة على وجود الصانع ووجوب شكره ثم كانوا يميزون الحسن من القبيح ، والباطل من الصحيح بالنظر فى المنافع والمضار او الاتفاق مع ما يليق بالله على حسب ما يرشد اليه العقل أو ما لا يليق ، ولا ريب أن استسلام الناس الى عقولهم بدون هداية الهية مما يدعو الى الاختلاف ، بل كثيرا ما حالت الأوهام دون الوصول الى المراد من العقائد والأحكام ، فيكون الاختلاف مفهوما من معنى الوحدة على هذا التأويل وما سبقه ، ولهذا رتب عليها بعثة الأنبياء ليحكموا بما أنزل الله فيما اختلف فيه الناس ٠ وقد أورد القاضى على نفسه مسألة آدم ورسالته وأجاب عنها بأنه من الجائز أن يكون آدم وأولاده قد بدأ أمرهم على سنة الفطرة فكانوا من اهل النظر ، ثم بعد أن كثر أولاده وظهر أن هداية العقل وحده لا تكفى فى حفظ سلامة القلوب لاصلاح الأعمال أرسله الله اليهم بهداية الهية من عنده ، وانه من المحتمل بل يكاد يكون من المحقق انه طرأ على نفس آدم ما أنساهم شرعه فعادوا الى استعمال عقولهم وحدها فعادت اليهم الوحدة فيما يؤدى الى الاختلاف « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » ٠٠٠ الآية ٠

وتوقف قوم فى معنى الأمة وقالوا : لا حاجة الى البحث فى انها كانت امة هداية أو أمة ضلال أو أمة عقل ، وهو قول غاية فى الغرابة ، لأنه ذهاب الى ترك فهم الآية الكريمة ، ومعنى ترتيب بعثة الأنبياء على وحدة الأمة اللهم الا أن يكون القائل قد أراد ما سيأتى لنا ذكره ان شاء الله تعالى

واغرب من هذا القول قول بعض المفسرين عن مجاهد ان الناس هم آدم وحده ، وأنه كان امة يقتدى به • ولا ندرى ماذا يقول أصحاب هذا القول فى تفسير بقية الآية نعوذ بالله من الخذلان •

وزعم آخرون أن المراد من الآية أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى عليه السلام ثم اختلفوا بغيا بينهم فأرسلت اليهم الرسل بكتب تهذبهم كما أرسل داوود بزبوره وعيسى بانجيله ليردوهم الى الحق فيما اختلفوا فيه ، وهو تخصيص للناس وللنبيين بما لا دليل عليه البتة •••

قال ابن العادل نقلا عن القرطبى : ولفظة « كان » على هذه الأقوال على بابها من المعنى ، ويحتمل ان تكون للثبوت ، والمراد الاخبار عن الناس الذين هم الجنس كله انهم امة واحدة فى خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بالرسل تفضلا منه ، فلا تختص بالمعنى فقط بل يكون معناها كقوله : «**وكان الله غفورا رحيما**»(١٢) ا•هـ• وقد قارب الصواب فى هذا الاحتمال الثانى وهو الذى كان يذهب الذهن اليه لأول الأمر لولا ما يشتغل به من النظر فى تلك الضروب من التأويل فتفرق به السبل ويكاد يضل السبيل •

ونحن ذاكرون لك ان شاء الله ما يجلى المعنى فى الآية ، مقتفين اثر ابن العادل والقرطبى فيما قالاه فى معنى « كان » وانها للثبوت لا للمضى غير أنا نقدم لك ما جاء فى كتاب الله من وصف الأمة بالواحدة والمعنى من ذلك الوصف فى مواضعه المختلفة ليكون فى ذلك توضيح لما نقصد » •

هكذا تتبعنا كلام الشيخ الامام محمد عبده وهو يستعرض جميع الأقوال التى وردت فى معنى هذه الآية • ونحن من خلال تعقيبه على كل منها بالنقد نستطيع أن ندرك انه يرجح أن الأمة الواحدة فى الآية كانت واحدة فى الكفر والضلال ويعلل لرأيه هذا بأن المقتضى لارسال الرسل ليس هو الاتفاق على التوحيد والحق بل على نقيضه من الشرك والضلال ،

---

(١٢) النساء : ٩٦

انه لا يرى رأى الجمهور فى أن المراد بالأمة الواحدة المتفقة على الحق والهدى ويفضل عليه الرأى القائل بأن الاتفاق انما هو فى الضلال والكفر لأنه هو الذى يصح ترتيب بعثة الرسل عليه ، ولكنه مع ذلك لا تطمئن اليه نفسه لمكان رسالة آدم وهداية أولاده بتلك الرسالة ، ونراه فى النهاية يميل الى الاحتمال الذى نقله عن ابن العادل والقرطبى فى أن « كان » فى الآية للثبوت وليست على بابها من الدلالة على المضى .

بعد ذلك نرى الامام يأتى بمقدمة تتضمن بيانا لمعنى وحدة الأمة فى كل موضع ذكرت فيه هذه الوحدة من القرآن ويهدف من وراء هذه المقدمة أن يمهد لرأيه الذى يراه وبعد ذلك يقول : فهل يمكنك مع هذا ان تحمل وحدة الأمة على وحدة العقيدة والعمل كما حملتها على ذلك فى الآيات الأخر ؟ ليس ذلك بممكن لأن الناس ليسوا أمة واحدة بذلك المعنى بل هم مختلفون ، فلا ريب أنه يجب حمل وحدة الأمة على معنى آخر وهو ذلك الذى نختاره فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها .

ولكى نعرف رأيه الذى اختاره فى الآية نراه يقول :

« خلق الله الانسان أمة واحدة أى مرتبطا بعضه ببعض فى المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا الى الأجل الذى قدره الله لهم الا مجتمعين يعاون بعضهم بعضا ، ولا يمكن ان يستغنى بعضهم عن بعض ، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشىء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج اليه فلا بد من انضمام قوى الآخرين الى قوته فيستعين بهم فى بعض شئونه ، كما يستعينون به فى بعض شئونهم وهذا الذى يعبرون عنه بقولهم « الانسان مدنى بالطبع » يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفى للوصول الى جميع حاجاته بل قدر له أن تكون منزلة أفراده من الجماعة منزلة العضو من البدن ، ولا يقوم البدن الا بعمل الأعضاء كما لا تؤدى الأعضاء وظيفتها الا بسلامة البدن ، فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم الا كذلك ، وهم انما يعملون بمقتضى آرائهم وينحون فى أعمالهم نحو المنافع التى يرونها لازمة لقوام معيشتهم ، ولم يمنحوا من قوة الالهام

ما يعرف كلا منهم وجه المصلحة فى حفظ حق غيره لتوفير المنفعة بذلك لنفسه ، لما كانوا كذلك كان لا بد لهم من الاختلاف ، وكان من رحمة الله بهم أن يرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة فى الآية التى نفسرها يكون على هذا المعنى .

ان الناس أمة واحدة لا بد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد يكفل لهم ما يحتاجون اليه مدة بقائهم فى هذه الحياة الدنيا ويضمن لهم ما به يسعدون فى الحياة الأخرى ولا يمكنهم فى هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقوا على تحديد ذلك النظام مع اختلاف الفطر ، وتفاوت العقول ، وحرمانهم من الالهام الهادى لكل منهم الى ما يجب عليه لصاحبه ، لما كانوا كذلك كان من لطف الله ورحمته بهم أن يرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين يبشرونهم بالخير والسعادة فى الدنيا والآخرة اذا لزم كل واحد منهم ما حدد له واكتفى بما له من الحق ولم يعتد على حق غيره ، وينذرونهم بخيبة الأمل وحبوط العمل وعذاب الآخرة اذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ولم ينظروا فى العاقبة » .

ويتابع الشيخ الامام حديثه فى تبيان رأيه الذى رآه فى الآية الى أن يقول : « ثم أراد الله أن يقيم الدليل على أن الاهتداء بهدى الانبياء ضرورى للبشر وأنه لا غنى لهم عنه مهما بلغوا من كمال العقل فقال : أن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولا سبيل لعقولهم وحدها الى الوصول الى ما يلزم لهم فى توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم وعلى أن ما يأتون به انما هو من عند الله القادر على اثابتهم وعقوبتهم ، العالم بما يخطر فى ضمائرهم .. » اهـ .

هكذا يخالف الشيخ محمد عبده رأى الجمهور فى تفسير الآية وقبل ان نعبر عن رأينا فيما ذهب اليه الشيخ من تفسير لهذه الآية الكريمة نذكر نموذجين لعالمين جليلين يمثلان الاتجاه الآخر فى تفسير الآية تفسيرا يتفق مع ما عليه الجمهور . وهو أن المراد بالأمة الواحدة فيها الأمة المتفقة على الاسلام والتوحيد وهما : فضيلة الشيخ حسنين مخلوف صاحب صفوة البيان والعلامة الحافظ ابن كثير .

أما الشيخ حسنين مخلوف : فيقول فى « صفوة البيان » نفسيرا لهذه الآية : « **كان الناس أمة واحدة** » كان الناس جميعا على شريعة من الحق ، ثم اختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتب بشرائعه ليحكم بين الناس بالحق فيما اختلفوا فيه » .

ويلاحظ ان فضيلته ــ من خلال قوله هذا ــ لم يذكر فى تفسيره شيئا عن الرأى المخالف لرأى الجمهور ، وهذا يعنى انه يرى أن الرأى القائل بأن الأمة الواحدة هى الأمة المتفقة على التوحيد والاسلام والهدى والحق هو الصواب ، وانه لا يحفل بغير هذا الاتجاه . والا لأشار اليه فى تفسيره .

وأما الحافظ ابن كثير : فيسير اثناء تفسيره للآية فى الاتجاه الذى يرجح أن المراد بالأمة الواحدة فى الآية هى الأمة المتفقة على التوحيد والاســلام .

اسمعه يقول فى تفسيره : « قال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا داوود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هى فى قراءة عبد الله « كان الناس امة واحدة فاختلفوا » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

وكذا روى ابو جعفر الرازى عن أبى العالية عن أبى بن كعب انه كان يقرؤها « كان الناس أمة واحــدة فاختلفوا فيه فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله : « **كان الناس أمة واحدة** » قال : كانوا على هدى جميعا « فاختلفوا فبعث الله النبيين » فكان اول من بعث نوحا ، وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولا .

وقال العوفى عن ابن عباس : « **كان الناس أمة واحدة** » يقول كانوا كفارا « **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** » والقول الأول عن ابن عباس اصبح سندا ومعنى ، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام

فبعث الله اليهم نوحا عليه السلام فكان أول رســـول بعثه الله الى أهــل الأرض » .

ويلاحظ فيما ذكره ابن كثير انه ذكر الراى الراجح عنده أولا ثم ذكر الراى المخالف والقائل بأن الأمة الواحدة كانت واحدة فى الكفر ولكنه ضعف هــذا الرأى وعضد الراى الأول القــائل بأنها كانت واحــدة فى التوحيد والاســلام .

وعلى هــذا يكون راى الشيخ حسنين مخلوف متفقا مع رأى ابن كثير وكلاهما يعبر عن رأى الجمهور وهو الصحيح فى تفسير الآية .

* * *

موقفنا من رأى الشيخ محمد عبده

ان راى الشيخ الامام فى تفسير الآية « **كان الناس امة واحدة ....** » **يخالف** ما ذهب اليه جمهور المفسرين . **وهو راى يقوم** فى جوهره على أن **الاجتماع** ضرورى بين البشر ، وأن هذا الاجتماع سبب فيما يحدث بينهم من نزاع على أسباب الحيــاة واذا كان ذلك **كذلك فلا بد لهم من قانون** يحكمهم ويضع لهم المقاييس التى **يسيرون على** مقتضاها فى علاقاتهم ، ولمــا كانت العقول وحدها لا تستقل بوضع هذا القانون لأنها غير منضبطة ، **لذلك** بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتب ليحكموا بين **الناس** فيما اختلفوا فيه بمقتضى ما حوته هذه الكتب من موازين للعـــدل والحق .. هذه خلاصة **رأى الامام** .

لقد جعل مهمة الأنبياء ليست **شيئا آخر غير تنظيم** الشئون الدنيوية وفض الخصومات المترتبة على **اجتماع الناس بعضهم مع بعض** . مع اننا نعلم علم اليقين ان مهمة الأنبياء **الأولى مهمة دينية فالله قد اصطفاهم** ليقوموا بتعريف الناس بربهم وارشادهم الى ما **ينبغى عليهم القيام به من** مظاهر العبادة والشكر له سبحانه ، **وانذارهم بالعقاب لو خالفوا فى يوم** يبعثون فيه للحساب والجزاء هذه هى **مهمة الأنبياء الأولى ، ثم ياتى فى**

الدرجة الثانية من الأهمية تنظيم شئون الحياة ووضع قواعد العدل فى المعاملات وبيان الحلال والحرام للناس وهذا هو المفهوم الذى تدل عليه الآية الكريمة .

صحيح أن الشيخ محمد عبده قد اشار الى هذه المهمة فى تفسيره ، الا أنه لم يجعلها الأساس الذى من اجله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الامام فى تفسيره قد خرج بلفظ « كان » فى الآية عن اصله الذى وضع له ، فقد وضع ليدل على المعنى ولا يدل على الثبوت الا اذا وجدت قرينة تمنع من ارادة المعنى الأصلى كما فى قوله تعالى : « **وكان الله غفورا رحيما** » فليس المراد هنا الاخبار عنه بأنه كان كذلك فى الماضى فحسب ، وانما المراد أن ذلك شانه وصفته الثابتة من غير تقييد بزمان .

* * *

راى الجمهور هو الأرجح

بعد أن استعرضنا الاتجاهين فى تفسير الآية « **كان الناس أمة واحدة** .. » نستطيع أن نقول : ان راى جمهور المفسرين هو الراى الأرجح لأنه يوافق الواقع . ففى عهد آدم عليه السلام كان أولاده واحفاده على ملته فى الايمان والتوحيد ، وبعد قرون طويلة طرأ عليهم الشرك ، يؤيدنا فى هذا ما قاله ابن عباس : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد » وفى عهد نوح عليه السلام كان الناس بعد الطوفان على ملته فى الايمان والتوحيد فلما غيروا بعد طول الأمد بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، واذا كان هذا هو الموافق للواقع فينبغى الاتجاه اليه ولا يحتاج الا لتخصيص النبيين فى الآية بما سوى آدم ونوح عليهما السلام ، ثم ان هذا الراى هو الذى دلت عليه الآيات والأحاديث التى تفيد أن الله فطر عباده على توحيده « **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله** »(١٣) . وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فيما

---

(١٣) الروم : ٣٠

رواه أبو هريرة « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »(١٤) .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « ... وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم على دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا »(١٥)

وهذه النصوص الشرعية كلها تفيد صراحة أن الأصل هو التوحيد والذى طرأ هو الشرك وأن الناس كانوا على هدى قبل ان تنحرف بهم الأهواء .

ثم ان الاجماع يكاد ينعقد من الصحابة والتابعين على أن الأمة الواحدة فى الآية هى الواحدة فى الاسلام والتوحيد مما يقوى اتجاه جمهور المفسرين الذى أشرنا اليه ، فهو المأثور عن ابن عباس وأبى بن كعب وابن مسعود وعكرمة وقتادة وأبى العالية ومجاهد وغيرهم ، أما رواية العوفى عن ابن عباس ـ والتى ذكرناها سابقا ـ والتى تقول انهم كانوا أمة واحدة فى الكفر . فهى لا تقوى على معارضة الروايات الكثيرة عنه مما يوافق الرأى الأول وليس من شك فى أن عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهما وهما على ما هما عليه من علم بكتاب الله عز وجل ووجوه قراءاته كانا يقرآن الآية « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » واذن فهى تفسير بالمنقول ، بل بالقرآن نفسه . وهذا مما يقف الى جانب رأى الجمهور .

هذا وقد توصل العلماء بعد دراسة دقيقة وشاملة لأحوال القبائل الموغلة فى الهمجية والبداوة الى أن فكرة الدين أصيلة فى النفس الانسانية ،

---

(١٤) الحديث عن أبى هريرة رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى وأحمد وابن حبان .

(١٥) الحديث فى صحيح مسلم (٤ /٢١٩٧ ط فؤاد عبد الباقى) القاهرة ١٩٥٥ م .

وأنها لم تحدث بسبب عوامل اقتصادية أو اجتماعية كما يدعى البعض ، وانما قامت أولا على التوحيد . وسأسوق اليك طرفا مما جاء على السنة هؤلاء العلماء فى هذا الشأن . نقلا عن كتاب « الدين » لفضيلة الشيخ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

يقول فضيلته بعد أن أشار الى من يرون أن الدين بدأ فى صورة خرافية وثنية وأن الانسان أخذ يترقى فى دينه على مدى القرون حتى وصل فيه الى الكمال بالتوحيد : « وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ويثبت بالعكس ان عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر مستدلا بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث ، فتكون الوثنيات ان هى الا اعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة . وهذه هى نظرية فطرية التوحيد وأصالته التى انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الانسان وعلماء النفس ومن أشهر مشاهيرهم « لانج » الذى أثبت وجود عقيدة الاله الأعلى عند القبائل الهمجية فى أستراليا وافريقيا وأمريكا ، ومنهم « شريدر » الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، و « بروكلمان » الذى وجدها عند الساميين قبل الاسلام . و « لرواه » و « كاترفاج » عند اقزام أواسط افريقيا ، و « شميدت » عند الأقزام وعند سكان استراليا الجنوبية الشرقية ، وقد انتهى بحث « شميدت » هذا الى أن فكرة الاله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من اقدم الأجناس الانسانية »(١٦) .

وبعد أن يعرض فضيلته المذاهب المختلفة فى نشأة الدين فى موضع آخر من الكتاب نفسه يقول : « تشترك المذاهب المتقدمة عن طريق عوامل انسانية سواء اكانت تلك العوامل من نوع الملاحظات والتأملات الفردية أم من جنس التأثيرات والضرورات الاجتماعية اللاشعورية . فى الطرف المقابل لهذه النظريات كلها يقرر المذهب التعليمى ان الأديان لم يسر اليها الانسان بل سارت هى اليه ، وانه لم يصعد اليها بل نزلت عليه ، وأن

---

(١٦) كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٧ ، ١٠٨ . ط . دار القلم بالكويت سنة ١٩٧٠ م .

الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحى ، هذه النظرية التى أخذت بها اوروبا طوال القرون الوسطى وأيدها بعض علماء التاريخ حتى فى القرن التاسع عشر لا تزال هى المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم ، كما أننا نجد فى الكتب السماوية مصداق الجانب الايجابى منها ، فهذه الكتب تقرر أن الله سبحانه لما خلق أبا البشر كرمه وعلمه حقائق الأشياء وكان فيما علمه أنه هو خالق السموات والأرض وما فيهما وأنه هو خالق الناس ورازقهم ، وأنه هو مولاهم الذى تجب طاعته وعبادته وأنه سيعيدهم اليه ويحاسبهم على ما قدموا . ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة لذريته ففعل وكانت هذه العقيدة ميراث الانسانية عن الانسان الأول . نعم : ان الناس لم يكونوا كلهم اوفياء لهذه الوصية المقدسة بل ان اكثرهم وقع فى الضلال والشرك ، ولكن هذا التعليم الأعلى لم يمح أثره محوا تاما من البشرية ، ولذلك ظلت فكرة الألوهية والعبادة بوجه عام مستمرة فى جميع الشعوب .

على أن العناية السماوية بهذا التعليم الروحى لم تقف به عند الانسان الأول ، بل ما زالت تتعهد به الأمم فى فترات تقصر او تطول ، وجعلت تذكرهم به على لسان سفراء الوحى من الأنبيــاء والمرسلين ، وان كتب الديانات العظمى تنسب كلها الى هذا المصدر السماوى »(١٧) .

ثم اننا نستطيع أن نتبين مدى فطرية العقيدة ، عقيدة الايمان بالله وبوحدانيته ، من ملاحظة سلوك الأطفال ومدى استجابتهم لمسائل الدين والاعتقاد ، وكيف يهتمون اهتماما بالغا بكل ما يتصل بأمور العقيدة من الوهية وبعث وجزاء وغير ذلك وهذا أمر مشترك بين الأطفال جميعا فى كل الشعوب والأمم(١٨) .

* * *

---

(١٧) المرجع السابق ص ١٦٤ ، ١٦٥

(١٨) انظر كتاب « تطور الشعور الدينى عند الأطفال » للدكتور عبد المنعم المليجى طبع دار المعارف بالقاهرة .

متى بدأ الشرك اذن ؟

يجيبنا على هذا الحافظ ابن كثير فيما نقله عن ابن جرير قال :

« حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس فى تفسير قوله تعالى : « **ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** »(١٩) قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان اشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم ابليس فقال : انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم » .

ويقول صاحب تفسير « صفوة البيان » فى تفسير هذه الآية :

« وهذه الخمسة أكبر الأصنام والصور التى كان قوم نوح يعبدونها ، ثم عبدتها العرب من بعدهم كما عبدت غيرها فكان « ود » لكلب بدومة الجندل . و « سواع » لهذيل بساحل البحر ، أو لهمدان . و « يغوث » لبنى غطيف من مراد بالجرف من سبأ أو لمراد ، ثم لغطفان . و « يعوق » لهمدان باليمن أو لمراد . و « نسر » لذى الكلاع من حمير » .

* * *

---

(١٩) نوح : ٢٣

الفصل الثانى

رسالة نوح عليه السلام

عرفنا مما تقدم أن قوم نوح عليه السلام كانوا قد احدثوا الشرك وعبادة الأصنام ، وأنهم كانوا يدعون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، وأن هؤلاء كانوا رجالا صالحين من قومه فلما ماتوا عكف قومهم على قبورهم ليتأسوا بهم فى العبادة ، ثم زين لهم ابليس ان يتخذو لهم صورا ليتذكروا كلما رأوها كيف كان نشاط هؤلاء فى عبادة الله فيكون ذلك أدعى الى الاقتداء بهم ، فلما طال عليهم الأمد وانقرض ذلك الجيل وجاء جيل آخر أوهمهم الشيطان أن آباءهم كانوا يعبدون هذه الصور ويستسقون بها فعكفوا على عبادتها .

وهذا يعنى ان الناس قد خرجوا عن ملة التوحيد التى فطروا عليها ، ونسوا عهد الله ، ولم يبق فى الأرض يومئذ من يعبد الله وحده فأرسل الله اليهم نوحا عليه السلام يدعوهم الى الله . وينذرهم عقابه ان استمروا على تلك الحال .

وعلى هذا فأول رسول بعثه الله الى أهل الأرض بمقتضى حديث الشفاعة هو نوح عليه السلام أرسله الله الى قومه يدعوهم الى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام .

وطالت دعوة نوح لقومه . وطال مقامه بينهم حيث مكث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما . وهو لا يمل من دعوتهم ليلا ونهارا سرا وعلانية **« رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا »**(١) .

---

(١) نوح : ٥ ــ ٩

لقد صبر نوح عليه السلام على دعوة قومه وقتا طويلا وبرغم طول الوقت ووضوح الدعوة وطول المثابرة وظهور الحجة لم يستجب له عليه السلام الا نفر قليل منهم ٠

لقد أخبره الله سبحانه عن طريق الوحى انه « **لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** »(٢) كما أمره أن يصنع الفلك بأعين الله ووحيه وأن يحمل فيها من كل نوع من الدواب والحيوانات زوجين اثنين ــ اى ذكرا وانثى ــ وأن يركبها مع أهله المؤمنين معه الا من سبق عليه القول منهم ، ونهاه ربه عن الشفقة بالكفار ، فلا يخاطبه فى شأنهم لأنه سبحانه قد حكم باغراقهم ٠

والحق ان القرآن الكريم قد عرض قصة نوح باستفاضة وركز على ما بذله فى دعوته من جهود الا أن الذى يعنينا منها هو ابراز ما يتصل بموضوع التوحيد الذى جاء يدعو قومه اليه ٠ ومن خلال متابعتنا لنصوص القرآن فى هذا الشأن نستطيع ان نستنتج ان الله أرسل نوحا الى قومه ليدعوهم الى توحيد الله وافراده بالعبادة دون سواه ٠

بدليل قوله تعالى : « **لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** »(٣) ٠

وقوله تعالى : « **ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ٠ أن لا تعبدوا الا الله** »(٤) ٠

وقوله تعالى : « **ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** »(٥) ٠

وانه عليه السلام قد استمر فى دعوته مثابرا دون انقطاع غير مبال بتهديد قومه ٠ وهذا شأن الداعى الى الحق الذى لا يبالى بتهديد أو وعيد يصدر من أهل الباطل ، وان الذين تصدوا لدعوة نوح وعارضوها هم

---

(٢) هود : ٣٦
(٣) الأعراف : ٥٩
(٤) هود : ٢٥ ، ٢٦
(٥) المؤمنون : ٢٣

السادة الأشراف من قومه وهم الذين عبر القرآن عنهم بـ « الملأ » تماما كما حدث لبقية الرسل عليهم الصلاة والسلام : « **وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون** »(٦) ٠

ولذلك نرى السادة من قوم نوح لا يستجيبون لدعوته بحجة أن أراذلهم وهم الفقراء والعبيد واصحاب الحرف ـ هم الذين اتبعوه « **ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** »(٧) ٠

وها هم أيضا يقولون له : « **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** »(٨) ٠

لقد جعل هؤلاء القوم اتباعهم لنوح عليه السلام مشروطا بأن يطرد الفقراء من مجلسه ولكنه عليه السلام رفض هذا الشرط لأنه لو فعل لنزل به عقاب ربه وهو عقاب لا يملك أحد رده عنه ٠ لقد قال لهم : « **وما انا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ٠ وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ٠ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين** »(٩) ٠

وما أشبه هذا الموقف بموقف سادة قريش حين اقترحوا على محمد ﷺ ان يجعل لهم يوما يجلسون معه فيه بحيث لا يسمح لأحد من الضعفاء والفقراء أن يقربه ، ولكن الله حذر رسوله من الاستجابة لطلبهم وانذره بأنه ان فعل كان من الظالمين ٠ لأنه أرسل الى الناس جميعا فهم جميعا عنده سواء ٠ لقد نزل الوحى على رسوله قائلا « **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين ٠ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين** »(١٠) ٠

---

(٦) سبأ : ٣٤
(٧) هود : ٢٧
(٨) الشعراء : ١١١
(٩) هود : ٢٩ ـ ٣١
(١٠) الأنعام : ٥٢ ، ٥٣

وفى مناسبة أخرى ينزل الوحى معاتبا محمدا ﷺ لأنه عبس فى وجه أعمى يريد الاسلام لأنه شغل الرسول عما كان فيه من دعوة هؤلاء السادة من قريش طمعا فى ايمانهم ليكون للاسلام بهم شوكة . ويبدو عتاب المولى جل وعز واضحا فى مفتتح سورة « عبس » حين يكلم الله نبيه بضمير الغيبة فى الآيتين الأولى والثانية مع أن الوحى ينزل عليه فيقول له : « **عبس وتولى . أن جاءه الأعمى** »(١١) وكان يمكنه أن يقول له : عبست وتوليت أن جاءك الأعمى . ثم تأتى الآيات التالية خطابا مباشرا لرسول الله فيه العتاب على ما فعل « **وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى** »(١٢) .

لقد كان نوح عليه السلام مرنا فى دعوة قومه متفننا فى أيراد الحجج عليها سالكا مع من يدعوهم ما يناسبهم من الطرق ، فلم يترك عليه السلام سبيلا الا وسلكه فى دعوته ، فمرة يعد قومه بالرزق الحسن والحياة الطيبة وكثرة المـال والولد ان هم آمنوا بالله ووحدوه ، وأخرى يخوفهم عاقبة تماديهم فى الكفر والضلال ، وأحيانا يدعوهم الى التأمل فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ليصلوا عن طريقها الى أن الخالق لهذه العوالم علويها وسفليها هو الله وهو الجدير بالعبادة وحده دون ما عداه من هذه الآلهة المزعومة التى لا تملك لمن يعبدونها شيئا « **ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيهـا ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا** »(١٣) .

وبرغم هذا الصبر ووعيد القوم وتهديدهم له لم يضعف ولم يتردد بل ظل ثابتا وكيف لا وقد اعتمد قبل كل شىء على ربه ، وفى هذا ما يكفى لكى يمتلىء قلبه شجاعة وأملا . ولذلك رأيناه لا يبالى بتجمع قومه عليه

---

(١١) عبس : ١ ، ٢
(١٢) عبس : ٣ ـ ١٠
(١٣) نوح : ١٣ ـ ٢٠

واستعانتهم بشركائهم ضده فيأمرهم عليه السلام أن يجمعوا امرهم وينفذوا قضاءهم فيــه لأنه واثق من ان النصر حليفه والعاقبة للمتقين ، ولذلك قال لهم : « **ان كان كبر عليكم** مقامى **وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليــكم غمة ثم اقضــوا الى ولا تنظرون** »(١٤) .

وحين وعد الله نوحا بنجاة أهله من الغرق الا من سبق عليه القول ممن بقى منهم على كفره ــ وكان ابنه فيمن غرق ــ توجه الى ربه سائلا عن سبب اغراقه قائلا : « **رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** »(١٥) فأجابه رب العالمين قائلا : « **انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسالنى ما ليس لك به علم** »(١٦) وكأن المولى **عز وجل يقول لنوح : لا صلة اصلا بين مؤمن وكافر وأن الابن عليه ان يتحمل مسئولية عمله ولا يتحملها عنه أبوه** ولو كان هذا الأب نبيا وان الأب عليه أن يتحمل مسئولية عمله ولا يتحملها عنه ابنه « **ولا تزر وازرة** وزر **أخرى** »(١٧) ، « **وأن ليس للانسان الا ما سعى** »(١٨) فعلى الرغم من **ان نوحا كان رسولا الا أنه لم يملك الشفاعة لابنه عند ربه ولم يستطع ان ينجيه من الغرق كما لم يملك أن يتحمل مسئولية زوجته التى حدثنا** القرآن عنها وعن امرأة لوط حيث « **كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلــم يغنيا عنهمــا من الله شــيئا وقيــل ادخــلا النــار** مع **الداخلين** »(١٩) .

وهذه المواقف الرائعة فى تحمل المسئولية تذكرنا بما كان بين ابراهيم **وأبيه آزر حيث دعاه الى الايمان بالله فأعرض عنه فلما تبين لابراهيم ان** أباه عدو لله تبرأ منه ومن قومه وقال لهم : « **انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** »(٢٠) .

---

(١٤) يونس : ٧١
(١٥) هود : ٤٥
(١٦) هود : ٤٦
(١٧) الأنعام : ١٦٤
(١٨) النجم : ٣٩
(١٩) التحريم : ١٠
(٢٠) الممتحنة : ٤

كما تذكرنا بفرعون وامراته ، ففرعون قد طغى وغره سلطانه فادعى الألوهية مرتين حيث قال لقومه : « **أنا ربكم الأعلى** »(٢١) كما قال لهم : « **ما علمت لكم من اله غيرى** »(٢٢) فكان مصيره الغرق جزاء كفره وطغيانه وجبروته « **فاخـذه الله نكال الآخرة والأولى** »(٢٣) اما امراته فكانت مؤمنة يعمر الايمان والتوحيد قلبها ومع ذلك فلم تشفع له عند ربه ولم تتحمل المسئولية عنه لأنها لا تملك ذلك وكان طلبها من ربها « **رب ابن لى عندك بيتا فى الجنـة ونجنى من فرعون وعمـله ونجنى من القـوم الظالمين** »(٢٤) .

وهذه المواقف تعيد الى اذهاننا مدى حرص رسول الله محمد ﷺ على هداية عمه ابى طالب الذى كان يشفق عليه ويحميه ، ولكن ابا طالب لم يهتد ومات كافرا ولم يغن الرسول عن عمه شيئا . ولما استغفر له الرسول بعد موته نهاه ربه عن ذلك قائلا : « **ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرا منه ، ان ابراهيم لأواه حليم** »(٢٥) .

وأخرج مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قول رسول الله ﷺ : « يافاطمة بنت محمد ، ياصفية ابنة عبد المطلب ، يابنى عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا ، سلونى من مالى ما شئتم » .

قال الرسول هذا بعد أن نزل عليه قوله تعالى : « **وأنذر عشيرتك الأقربين** »(٢٦) .

هذه هى النتائج التى خرجنا بها ونحن نتابع رسالة نوح عليه السلام فى دعوة قومه الى توحيد الله وافراده بالعبادة دون سواه . ومن خلالها عرفنا ان العاقبة لأهل الايمان والتوحيد الذين وان كانوا قد امتحنوا

---

(٢١) النازعات : ٢٤
(٢٢) القصص : ٣٨
(٢٣) النازعات : ٢٥
(٢٤) التحريم : ١١
(٢٥) التوبة : ١١٣ ١١٤
(٢٦) الشعراء : ٢١٤

بأنواع من البلاء وصنوف من الغطرسة والايذاء الا ان النصر كان حليفهم فى النهاية وصدق الله العظيم القائل فى شأن هؤلاء : **« ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين »**(٢٧) ٠

***

● **عودة التوحيد بعد الطوفان :**

ومهما يكن من الأمر فقد نجى الله نوحا عليه السلام والذين آمنوا معه من الطوفان ، واهلك القوم الذين ظلوا يعكفون على اصنامهم واصروا واستكبروا استكبارا ، لقــد اتى الطوفان عليهم ، وعلى معبوداتهم ٠ وعادت راية التوحيد ترفرف على الناس من جــديد ، ولم يبق آنذاك الا كل مؤمن موحد ٠

لقد ترك نوح عليه السلام من بعده ثلاثة أولاد هم : «سام» و «حام» و «يافث» ويقال ان اهل الأرض جميعا بعد الطوفان هم من نسل هؤلاء الثلاثة ٠

فـ « سام » ابو العــرب والعبرانيين ٠ و « حام » ابو الســودان والأحباش ٠ و « يافث » ابو الترك ٠ ولعل مما يؤيد هذا قول الله تعالى فى شأن نوح عليه السلام : **« وجعلنا ذريته هم الباقين »**(٢٨) ٠

فالآية ــ والله أعلم ــ تشير الى أنه لم ينسل من ركاب السفينة الا أبناء نوح ولذلك كان يقال له : أبو البشر الثانى ٠

ويبدو أنه قد مر وقت طويل قبل ان تكثر ذرية أبناء نوح ويتفرقوا فى الأرض كما يبدو انهم ظلوا محافظين زمنا طويلا على ما ورثوه من التوحيد قبل أن يحصل منهم ما حصل من التغيير والتبديل وحدوث الشرك الذى لم يحدثنا القرآن عن بدء حدوثه ولا عن متى بدأ ٠

***

---

(٢٧) يونس : ١٠٣ — (٢٨) الصافات : ٧٧

الفصل الثالث

رسالة هود عليه السلام

يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى قد استخلف عادا فى الأرض بعد قوم نوح عليه السلام ، وفى هذا يقول سبحانه وتعالى على لسان هود عليه السلام وهو يخاطب قومه :

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون »(١) ٠

وهذا يعنى أنه لم يكن بين نوح وهود عليهما السلام رسالة أو رسول غير أن الآية لم تفصح عن الزمن الذى كان بينهما ٠

ولعل مما يؤيد هذا ٠ أن قصة عاد تأتى دائما فى القرآن بعد قصة قوم نوح مما يدفعنا الى القول بأنه لم يكن بينهما أمم ، والا لتحدث القرآن عن هـذا ٠

لقد تحدث القرآن الكريم مبينا أن الله تعالى ارسل هودا الى عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف ٠

والأحقاف تقـع فى الجنوب الشرقى من الجزيرة بين حضرموت وعمان ٠ وقد بلغ هؤلاء من القوة وكثرة المـال والأولاد ما لم يصل اليه غيرهم من الأمم فى الزمان الأول ، لقد اظهروا من براعة الفن فى بنـاء القصور العالية ، كما قاموا بنحت البيوت فى الجبال ، ويدلنا على هذا قول هود عليه السـلام لهم : **« اتبنون بكل ريع آية تعبثون ٠ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ٠ واذا بطشتم بطشتم جبارين »(٢) ٠**

---

(١) الأعراف : ٦٩

(٢) الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠

ويقول تعالى فى شأنهم أيضا : « **ألم تر كيف فعل ربك بعاد • ارم ذات العماد • التى لم يخلق مثلها فى البلاد** »(٣) •

لقد بدأ هود عليه السلام دعوته بتذكير قومه بنعمة الله عليهم ودعاهم الى توحيد الله وافراده بالعبادة دون سواه ، لأنه أمدهم بالأنعام والبنين والجنات والعيون ، وأبان لهم أنهم ان أصروا على الكفر وعبادة الآلهة الباطلة التى يعبدونها من دون الله فسوف ينزل الله عليهم بطشه ونقمته ، كما أوضح لهم أنه فى كل هذا ناصح أمين لا يطلب أجرا على نصحه وانما أجره على الله •

انها دعوة كريمة يدعوهم اليها نبى الله هود ، ولو انهم استجابوا له واتبعوه لأغدق الله عليهم النعمة ولزادهم قوة الى قوتهم ، ولكن القوم ردوا دعوته بأغلظ الرد وقالوا له : « **انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين** »(٤) •

كما قالوا له : « **ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين • ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** »(٥) •

لقد حكى القرآن مقالة بعضهم لبعض وهم يتواصون بالكفر « **ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون • ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون • أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون • هيهات هيهات لما توعدون • ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين • ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين** »(٦) •

ومما يدل على طغيان هؤلاء القوم انهم تعجلوا عذاب الله لهم وقالوا لهود : « **فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين** »(٧) • فأرسل الله عليهم

---

(٣) الفجر : ٦ ـ ٨
(٤) الأعراف : ٦٦
(٥) هود : ٥٣ ، ٥٤
(٦) المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٨
(٧) الأعراف : ٧٠

ريحا صرصرا عاتية « **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** »(٨) ٠

وهكذا نزل بعاد ما كانوا يستحقونه من عقاب لأنهم « **جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ٠ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا ان عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود** »(٩)٠

لقد كان بامكان قوم هود أن يتعظوا بما جرى قبلهم لقوم نوح من الهلاك بالغرق وخاصة أنهم كانوا خلفاء لهم ـ كما قدمنا ـ فما تزال حادثة الطوفان عالقة بأذهانهم ، هذا ويلاحظ أن الذين عارضوا دعوة التوحيد التى جاء بها نبى الله هود كانوا هم الأشراف من قومه ممن امتازوا على غيرهم بالجاه والغنى ، وهؤلاء دائما يقفون سدا منيعا أمام دعوة كل رسل الله ، لأنهم يخشون على جاههم ونفوذهم من دعوات الاصلاح والتوحيد ـ وهذا هو الذى حدث تماما من صلف الأغنياء والملأ من قوم نوح عليه السلام ٠

ولمـا وجد هود هذا الصلف والطغيان من قومه أعلن أنه برىء منهم ومن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله ، لقد تحداهم رغم شدتهم وغلظتهم وأشهد الله وأشهدهم على هذه البراءة دون خوف أو رهبة وكيف يخشاهم ومعه ربه الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ٠

انه موقف رائع من هود عليه السلام شبيه بموقف نوح من قومه ، بل هو موقف كل رسل الله لأنهم صلوات الله عليهم متوكلون على الله واثقون من نصره ، وهم لذلك لا يأبهون بتهديدات أعدائهم ، انهم يخشون الله وحـده ولا يخشون سـواه « **الذين يبلغون رسـالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا** »(١٠) ٠

ولمـا كانت ديار عاد معروفة للعرب ، وكان العرب فى أسفارهم يمرون عليها ويعرفون مقدار ما حل بهم من الهلاك والخراب ، لذلك ذكرهم الله بهـذا المصير فقال لهم : « **ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا**

---

(٨) الحاقة : ٧ ٠ (٩) هود : ٥٩ ، ٦٠

(١٠) الأحزاب : ٣٩

لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون • ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون • فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم ، وذلك افكهم وما كانوا يفترون »(١١) •

بهذا الوضوح يعرض القرآن الكريم ما بذله هود عليه السلام فى دعوة قومه الى اخلاص العبادة لله وحده ، كما يعرض موقف المعاندين لدعوته ويصور لنا العقاب الرادع الذى حاق بهم ويذكر القرشيين والعرب جميعا بهذا المصير عندما وقف سادتهم موقف المعارضة القاسية لدعوة محمد ﷺ •

هذا • وقد جرت عادة القرآن الكريم فى جميع المواضع أن يذكر صالحا عليه السلام وموقف قومه من دعوته بعد ذكره مباشرة لهود عليه السلام وقومه عاد • مما ينبىء عن أن الأمتين عاد وثمود كانتا متقاربتين فى الزمان ، وأن ثمود كانت تعلم ما حدث لأسلافهم وما حل بهم من عقاب •

وها نحن نتابع هذا النسق القرآنى لنرى ماذا كان موقف ثمود من دعوة التوحيد التى جاء بها صالح عليه السلام •

***

---

(١١) الأحقاف : ٢٦ ـ ٢٨

الفصل الرابع

رسالة صالح عليه السلام

لكى ندرك مدى ما اضافته ثمود الى سجل المشركين من ظلم ووثنية وطغيان ، نذكر هنا وقبل الدخول فى التفاصيل أن رسول الله محمدا ﷺ عندما مر على ديارهم فى طريقه الى تبوك نهى اصحابه عن الشرب من مائهم والدخول عليهم وقال لهم ما رواه الأثر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم » .

ولقد شاء الله عز وجل أن يرسل بعد نوح هودا وان يرسل بعد هود صالحا ليدعو قومه ثمود الى الله(١) .

وأخذ صالح عليه السلام يباشر مهام الرسالة التى كلف بها فأطلع قومه على ما أولاهم الله من نعم لا تحصى ، ومنها أنه جعلهم خلفاء من بعد عاد وبواهم فى الأرض يتخذون من سهولها قصورا وينحتون الجبال بيوتا لقد قال لهم : « **واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا** »(٢) .

فماذا كان موقف القوم ؟ لقد استهزأوا بصالح عليه السلام ، وبدلا من أن يأخذوا بناصره وهو أخوهم – رموه بالسفه والجنون . وقالوا له : « **ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب** »(٣) .

ولم يكتف القوم بهذا بل طلبوا منه أن يأتى بالدليل على صدقه فى دعواه ، وحددوا نوع هذا الدليل ، لقد اقترحوا عليه أن يخرج لهم من

---

(١) كانت ثمود تسكن الحجر بين الحجاز والشام .
(٢) الأعراف : ٧٤ (٣) هود : ٦٢

صخرة فى الجبل ناقة ناتجا ومعها فصيلها ، فأخذ عليهم العهد ان هو فعل ليؤمنن به فعاهدوه على ذلك .

وهنا لجأ صالح الى ربه داعيا اياه مستغيثا به ان يحقق له هـذا ليكون آية على صدقه امام هؤلاء المعاندين .

وشاء الله القوى القادر ان تنتفخ الصخرة كما تنتفخ بطن الأم التى اتمت شهور حملها ، ثم ارتجت وانشقت عن ناقة عظيمة الخلق عظيمة المنظر واخذت تمشى وفصيلها فى اثرها ، والقوم امام هذا المنظر الرائع ينظرون ومع ذلك لم يؤمنوا بصالح وبدعوته ، وأصروا على الشرك . وفى هذا يقول الله تعالى : « **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** »(٤).

وهكذا نكس القوم بالعهد ، لقد طلبوا منه آية على صدقه ، فجاءهم بها ومع ذلك فلم يؤمنوا . فقال لهم « **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** »(٥) .

لقد أوصاهم الا يقربوا هذه الناقة ، وأن يدعوها تأكل فى أرض الله دون أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب يوم عظيم ، وجعل لها يوما تشرب فيه ، ولهم شرب يوم معلوم .

ولكن القوم ضاقوا ذرعا بالناقة لأنها حين تنزل الوادى لتشرب كانت تنفر منها دوابهم وأنعامهم ، ولأنها كانت تشاركهم المـاء وهو قليل فانبرى أحد أشقيائهم وهو « قداء بن سالف » فعقرها ، وبارك القوم هذا الفعل الأثيم ولذلك اعتبر القرآن الكريم انهم جميعا شاركوا فى عقرها فعبر عن ذلك بقوله : « **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين** »(٦) .

فقـال لهم صالح : « **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب** »(٧) .

---

(٤) الاسراء : ٥٩ .
(٥) هود : ٦٤
(٦) الأعراف : ٧٧
(٧) هود : ٦٥

وحل بهم عقاب الله : « **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين** »(٨) ٠

وتولى عنهم صالح وهو يقول لهم : « **يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** »(٩) ٠

فلننظر الى أى مدى طغت ثمود فى أرض الله واسرفت فى الكفر وارتكبت أبشع الجرائم دون أن تعتبر بما حل بعاد ٠ وكان عليها ان تنقاد لصالح وتذعن للايمان والتوحيد الذى جاءهم به ، خاصة بعد أن اتى بالآية التى طلبوها ، ومع انها غاية فى القوة والظهور على صدق دعواه الا انهم جحدوها بل زادوا الطين بلة عندما عقروها وتعجلوا العذاب بينزل بهم ٠

لقد اضافوا الى جرائمهم وعتوهم ان دبروا قتل نبيهم صالح واهله وفكروا فى حيلة يبرءون بها من دمه وهى أن يقولوا : ما شهدنا مهلك أهله ، وتقاسموا على ذلك وها هو القرآن الكريم يحكى قصة هذه المؤامرة المدبرة فيقول : « **وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ٠ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ٠ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ٠ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين ٠ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون ٠ وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** »(١٠) ٠

ونحن من خلال تتبعنا لنصوص القرآن الكريم وهو يعرض لنا سلسلة رسل الله الذين نادوا بتوحيده واخلاص العبادة له ، نرى القرآن يذكر خليل الرحمن ابراهيم عليه الصلاة والسلام بعد ذكره لنبى الله صالح ، مما يجعل رسل الله سلسلة ممتدة متتابعة الحلقات ، واضحة المعالم والقسمات ، داعية كلها الى التوحيد واسلام الوجه لله ٠

---

(٨) هود : ٦٧ — (٩) الأعراف : ٧٩

(١٠) النمل : ٤٨ ــ ٥٣

ويبدو هذا واضحا من قوله تعالى لفريق آخر من المشركين المعاندين : « **الم ياتهم نبأ الذين من قبلهم قــوم نوح وعاد وثمود وقوم ابــراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات ، اتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون** »(١١) ومن قوله لرسوله صلى الله عليه وسلم مخففا عنه وطأة قومه : « **وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ٠ وقوم ابراهيم وقوم لوط ٠ واصحاب مدين ، وكذب موسى فامليت للكافرين ثم اخذتهم ، فكيف كان نكير** »(١٢) وبعد ٠٠ فماذا عن رسالة ابراهيم خليل الرحمن ؟

* * *

---

(١١) التوبة : ٧٠ (١٢) الحج : ٤٢ ــ ٤٤

الفصل الخامس

رسالة ابراهيم عليه السلام

● عهد جديد للتوحيد :

يشغل أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام مكانا كبيرا فى العديد من سور القرآن الكريم ، كما جاء ذكره فى التوراة والانجيل ، وحفاوة الكتب السماوية به الى هذا الحد لأكبر دليل على انه عليه السلام يحتل مكان القدوة والامامة فى الدعوة الى التوحيد والثبات عليه ، والمعاداة فيه مما جعله أمة وحده · حقا لم يكن احترام ابراهيم وتقديسه والتباهى بالانتساب اليه أمرا مقصورا على الاسلام فحسب ، بل لقد ادعى اليهود والنصارى ـ من باب المباهاة به ـ أنه منهم · غير أن القرآن الكريم كشف عن زيفهم وفضح أمرهم حين قال لهم : « **يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ، افلا تعقلون · ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم بـه علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون · ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين · ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين** »(١) ·

ولقد جاء فى « التوراة » ما من شأنه أن يجعل من ابراهيم مكانا عليا فى الدين : وها هو « سـفر التكوين » يقول فى شـأنه : ان الرب قال لابراهيم « اذهب من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك واعظم اسمك وتكون بركة · وأبارك من يباركك · ومن يلعنك العنه ، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض

---

(١) آل عمران : ٦٥ ـ ٦٨

فذهب ابراهيم كما قال له الرب وذهب معه لوط »(٢) .

ويقول : « ظهر الرب لابرام وقال انا الله القدير مر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدى بينى وبينك واكثرك كثيرا جدا ، فخر ابرام ساجدا وتكلم الله معه قائلا أما انا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم واثمرك كثيرا جدا واجعلك أمما ومنك ملوك يخرجون ، واقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون الها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا واكون الههم ، وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة »(٣) .

وعند ذكر قصة الفداء يقول سفر التكوين : « ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى اقسمت أنى من أجل انك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك ووحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء «(٤) .

لقد حوى العهد القديم ـ فيما يتعلق بشأن ابراهيم ـ كثيرا من الاشارات اليه عليه الصلاة والسلام . نذكر منها ـ بالاضافة الى ما سبق ـ ما جاء فى وصف ابراهيم بالخلة فى كتاب الأيام الثانى حيث يقول : « ألست انت الهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد »(٥) هذا فيما يتعلق بالمصادر اليهودية ومدى حفاوتها بابراهيم عليه السلام .

أما المصادر النصرانية فلم يحتل فيها ابراهيم هذا القدر الكبير من الاشارات اليه كما كان الحال فى المصادر اليهودية . ولكنها على كل حال ذكرته أيضا واثنت عليه . واليك نماذج مما قالته هذه المصادر متعلقا به عليه السلام :

---

(٢) الاصحاح الثانى عشر .
(٣) سفر التكوين : الاصحاح السابع عشر .
(٤) الاصحاح الحادى والعشرين .
(٥) الاصحاح العشرين .

ففى انجيل متى يقول المسيح عليه السلام :

« الحق اقول لكم لم اجد فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، واقول لكم ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب فى ملكوت السموات ٠ واما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية »(٦) ٠

وفى انجيل يوحنا ، يقول المسيح لليهود الذين آمنوا به :

« انكم ان ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم ، فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط فكيف تقول انكم تصيرون أحرارا ؟ قال الحق اقول لكم ان كل من يعمل بالخطيئة فهو عبد للخطيئة والعبد لا يبقى فى البيت ابدا ، اما الابن فيبقى للأبد ٠ ثم قال : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون اعمال ابراهيم »(٧) ٠

ويأتى دور القرآن الكريم الذى نجده وقد افاض كثيرا فى ذكر ابراهيم الخليل ذكرا يضفى عليه كل ثناء وبهاء وها نحن الآن سوف نقتفى أثر هـذه النصوص القرآنية التى تناولت رسالة ابراهيم وجهوده التى بذلها من أجل دعوته ٠

والحق ان ابراهيم عليه السلام قد بدأ عهدا جديدا للتوحيد فحين ارسله الله الى قومه جاهر بالدعوة الى عبادة الله وحده فى قوة وصلابة وترك ما عداه من معبودات باطلة ٠

وكان قوم ابراهيم صابئة يعكفون على عبـادة الكواكب والنجوم لاعتقادهم انها اجسام ملائكة ، ومن اجل ذلك اتخذوا لها صورا فى الأرض وهى الأصنام التى عبدوها وتقربوا بها الى الله ٠

لقد كانت عبادة قوم ابراهيم خليطا من شتى الديانات ، وسبب ذلك انهم كانوا يقيمون عند خليج فارس ، وهذا المقام « يجعلهم فى طريق كل

---

(٦) انجيل متى : الاصحاح : ٨
(٧) انجيل يوحنا : الاصحاح : ٢

ملة يتردد ابناؤها على ذلك الاقليم او يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون ، واتصل به ابناء البحار كما اتصل به ابناء الصحراء » هكذا يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه الشهير « ابو الأنبياء » ومن هنا نستطيع أن نعلل أوجه الشبه فى شعائرهم وبين ما يوجد فى معظم الأديان المعروفة . ومع متابعتنا للعقاد فى كتابه السابق نراه يذكر ان الصابئة فى تحرجهم من ملامسة غيرهم وتطهرهم اذا حدثت الملامسة فى حال العبادة ، مشابهون للبراهمة .

وهم فى كتمانهم لكتبهم واخفاء شعائر دينهم عن غيرهم ممن ليس منهم واقتسامهم الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية ، واعتقادهم ان لكل شىء ظاهرا وباطنا ، وان لكل مخلوق فى العلانية صورة محجوبة فى عالم الغيب حتى آدم وبنوه . هم فى كل هذا مشابهون لأصحاب العقائد الأورفية أو السرية .

وهم فى توجههم الى قطب الشمال ، والى الكواكب عامة يشابهـون المجوس .

وهم فى تدينهم بالعماد وتبجيلهم ليوحنا المعمدان او يحيى المغتسل مشابهون للمسيحيين وان كان الصابئة اعم فى التعميد منهم لأنهم يحتاجون الى العماد والى التطهر بالمـاء كل يوم .

وهم يشابهون المسلمين فى اقامتهم الصلاة مرات فى اليوم ، ويقولون انها فرضت عليهم سبعا ثم اسقطها يوحنا عنهم وادخل بعضها فى بعض واكتفى منها بثلاث غير انهم لا يسجدون فى صلاتهم وانما يقومون ويركعون ويتوضأون قبل الصلاة ويعرفون نواقض الوضوء ويغتسلون من الجنابة .

وهم يشابهون اليهود فى ذبائحهم ولهم يوم فى ختام السنة كيوم اليهود غير انهم يحرمون الختان ، ولا يقيمون لهم هيكلا مبنيا ، وينكرون الأنبياء ، كما ينكرون خطاب الله للبشر ويقولون ان الله خلق الملائكة الذين هم روحانيات وقد تلبست هذهالروحانياتبالكواكبالنورانية ولما احتاجالأمر الى امثلة من هذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون صنعوا لها صـورا

من الأوثان وجعلوا اتجاههم الى نجم القطب لأنه ثابت فى مكانه ، وهم يوقرون الكعبة المكرمة ويعتقدون أن الذى بناها هرمس أو ادريس عليه السلام ، وانها بيت زحل اعلى الكواكب السيارة . هذا وينقل عنهم عارفوهم انهم قرأوا صفة محمد ﷺ فى كتبهم ويسمونه عندهم ملك العرب لأن الشائع فيهم انهم لا يؤمنون بالأنبياء .

ثم يقول العقاد فى كتابه السابق عن عقائد الصابئة : « ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم لأنهم يصطنعون التقية ويوجبونها » .

هذا وقد جاء ذكر الصابئة فى القرآن فى اكثر من موضع ومن ذلك قوله تعالى : « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »(٨) .

هؤلاء هم قوم ابراهيم الذين أرسل فيهم وهذه معبوداتهم فماذا كان مسلكه عليه السلام فى دعوتهم الى عبادة الله وحده ؟

لقد وجد ابراهيم اباه وقومه يعبدون الأصنام فحاول بالحسنى ان يأخذ بيد أبيه الى عبادة الله وحده فقال له : « **يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا ابت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا . يا ابت لا تعبد الشيطان ، ان الشيطان كان للرحمن عصيا . يا ابت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** »(٩) .

انه أسلوب غاية فى الأدب ، استعمله ابراهيم فى مخاطبة أبيه عساه يعدل عن طريق الشيطان ويسلك طريق الرحمن . ولكن الأب نهر ابراهيم وقال له : « **أراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك ، وأهجرنى مليا** »(١٠) .

---

(٨) البقرة : ٦٢
(٩) مريم : ٤٢ ـ ٤٥
(١٠) مريم : ٤٦

وبرغم هذه القسوة التى تبدو فى كلام آزر وهو يعلق على كلام ابنه ابراهيم الا أن الابن الرسول قال له : « **سلام عليك سأستغفر لك ربى ، انه كان بى حفيا • واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربى عسى الا أكون بدعاء ربى شقيا** »(١١) •

واذا كانت سورة مريم قد صورت لنا هـذا الحوار الذى دار بين ابراهيم وأبيه ، وأبرزت لنا لين الابن فى دعوة أبيه الى توحيد الله ، وعنف الأب فى الرد عليه فـان على ابراهيم أن يجـاهر اباه وقومـه بالعداوة ، وقد فعل ، لقد قال لهم : « **انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفـرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضـاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحـده** »(١٢) •

وفى سورة أخرى يصور القرآن محاولة ابراهيم اقناع أبيه وقومه بالعدول عن عبادة الأصنام مبينا لهم أنها أصنام لا تسمع بل ولا تنفع ولا تضر فيقول : « **واتل عليهم نبأ ابراهيم • اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون• قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين • قال هل يسـمعونكم اذ تدعون • أو ينفعونكم أو يضرون • قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤكم الاقدمون • فانهم عدو لى الا رب العالمين • الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطعمنى ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين • والذى يميتنى ثم يحيين • والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** »(١٣) •

لقد دخل ابراهيم عليه السلام فى محاجة مع قومه • فلما خوفوه مغبة كفره بآلهتهم قال لهم موبخا : « **أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون • وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله**

---

(١١) مريم : ٤٧ ، ٤٨ (١٢) الممتحنة : ٤
(١٣) الشعراء : ٦٩ ــ ٨٢

ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين احق بالأمن ، ان كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم »(١٤) .

وحين وجد ابراهيم عليه السلام أن الاقناع بالقول لا يجدى مع هؤلاء لجأ الى المكيدة فاغتنم فرصة خروج قومه الى عيد لهم وراغ الى آلهتهم فقال لهم ساخرا منهم :« الا تاكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين »(*) « فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون »(١٥) .

ورجع القوم الى مدينتهم فوجدوا اصنامهم محطمة وعندئذ قالوا : « من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فاتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أانت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسالوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . اف لكم ولما تعبدون من دون الله ، افلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين »(١٦) .

لا جدال اذن فى أن ابراهيم عليه السلام قد ضرب المثل الأعلى فى الاخلاص لدعوة التوحيد واحتمل كل ما يلقى فى سبيلها حتى ولو القى فى النار .

ويسجل القرآن لابراهيم عليه السلام هذه الألمعية والفطنة فيما دار بينه وبين الملك نمرود بن كنعان ملك الكنعانيين حيث أفحمه ابراهيم وجعله

---

(١٤) الأنعام : ٨٠ ـ ٨٣
(*) الصافات : ٩١ ـ ٩٣
(١٥) الأنبياء : ٥٨
(١٦) الأنبياء : ٥٩ ـ ٧٠

يعى عن الجواب رغم طغيانه وجبروته وكفره وفى هذا يقول الله تعالى : **« الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين »(١٧) ٠**

لقد صور القرآن الكريم موقف ابراهيم من عبدة الكواكب تصويرا فى غاية الدقة وأبان عن أسلوبه فى محاربة هـذه المعبودات الباطلة مبينا لعابديها انها لا تصلح للعبادة لأنها تغيب والاله لا يغيب ابدا ، لقد تدرج معهم فى الاقناع سالكا منهجا غاية فى الترقى والمنطقية بدرجة كشفت لهم زيف معبوداتهم ٠ وها نحن نتابع آيات الكتاب الكريم فى عرض هـذا المسلك الرائع ٠ يقول الله تعالى : **« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ٠ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ٠ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ٠ فلما رأى الشمس بازغة قال هـذا ربى هـذا اكبر ، فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون ٠ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين »(*) ٠**

وقد يفهم البعض هذه الآيات فهما خاطئا ٠ على معنى أن ابراهيم وضع هـذه الأجرام العلوية فى موضع الاختبار لها ليدرك مدى صلاحيتها للالهية فلما غابت اعلن انه برىء منها ٠

وهـذا فهم خاطىء للآيات لأنه والحالة هـذه يرمى خليل الرحمن بالشك ، والشك كفر ٠ ولمـا كان ابراهيم نبيـا اصطفاه الله فالأنبيـاء معصومون من الكفر قبل الرسالة وبعدها ٠

ونؤيد كلامنا هـذا بذكر طرف مما قاله بعض المفسرين فى هـذا الخصوص ٠

---

(١٧) البقرة ٢٥٨

(*) الأنعام : ٧٥ ــ ٧٩

يقول فضيلة الشيخ حسنين مخلوف فى تفسيره « صفوة البيان » عندما تعرض فضيلته لتفسير قوله تعالى : « **قال هـذا ربى** » : « انه قال هـذا على سبيل الفرض وارخاء العنان مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليها بالابطال ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال وكذا يقال فيما بعده » .

ويقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات : « اختلف المفسرون فى هـذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة ، فروى ابن جرير من طريق على بن طلحة عن ابن عباس : ما يقتضى انه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلا بقوله « **لئن لم يهدنى ربى** » . ثم قال : والحق أن ابراهيم عليه السلام كان فى هـذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية التى هى على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم الى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وانما يتوسلون اليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون اليـه ، وبين فى هـذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل وهى الكواكب السبعة السيارة » .

واذن : فابراهيم لم يقل هـذا عن شك منه فى أن هـذه الكواكب تصلح أن تكون آلهة أم لا ، ولذلك اختبرها . وانمـا قال ما قاله لأنه فى معرض المناظرة لقومه ، والزامهم الحجة على بطلان عبادتهم لهذه الآلهة المتغيرة التى تظهر ثم تغيب .

هذا ، ولا التفات لمـا قاله صاحب المواقف ـ حين قال فى رده على من ذهب الى أن هـذا الكلام من ابراهيم كان على جهة النظر والاستدلال ـ قال : ان هذا القول من ابراهيم كان قبل تمام النظر فى معرفة الله وكان قبل النبوة .

لأن هذا الكلام من صاحب المواقف لا ينهى النزاع فى هذه القضية ولا يزيد عن كونه تسليما بحصول الشك من ابراهيم ، غاية الأمر انه كان منه قبل النبوة .

وقد قلنا ان العلماء قد أجمعوا على امتناع الكفر على أنبياء الله قبل النبوة وبعدها .

وما أشبه هذا الموقف من الخصوم فى اتهامهم ابراهيم بالشك والكفر بموقفهم منه عليه السلام حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، حيث اتهموه بأن هذا الطلب شك منه فى قدرة الله على أحياء الموتى والشك شرك وكفر .

وها نحن سنذكر النص - موضوع النزاع - ثم نعلق عليه بما يوضح قصده عليه السلام ، لقد قال الله تعالى فى شأن ابراهيم : **« واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم »**(١٨) .

ونقول فى الجواب على هذا :

ان ابراهيم عليه السلام طلب من ربه سبحانه أن يريه كيف يحيى الموتى - كما هو منطوق الآية - فسؤال ابراهيم اذن سؤال عن كيفية الاحياء لا عن الاحياء نفسه ، لأنه عليه السلام - وهو النبى المعصوم - يعلم يقينا قدرة الله على احياء الموتى ولا شك فى أن هناك فرق كبير بين السؤال عن الاحياء وبين السؤال عن كيفيته . ويمكن ان يقال :

لما كان ابراهيم عليه السلام يعلم علم اليقين أن الله قادر على احياء الموتى فقد أراد أن يرى ذلك عيانا ليتضح له عين اليقين مع علم اليقين الذي عنده . والله أعلم .

* * *

● مولد اسماعيل عليه السلام :

تزوج ابراهيم عليه السلام من ابنة عمه « سارة » التى شاء الله ان تكون عقيما ، وكانت على جانب كبير من الجمال ، فلما قدم بها عليه السلام الى مصر وعلم فرعون بجمالها أرسل من رجاله من يأتيه بها .

---

(١٨) البقرة : ٢٦٠

وحينئذ شعر ابراهيم بتدبير فرعون مصر فأخبر زوجته ان هم سألوها عنه أن تقول لهم انه أخوها اذ لو علموا انه زوجهـا لقتلوه لتخلص سـارة لهم ٠

وحاول فرعون ان يصل اليها وفى كل مرة يخيب الله أمله ، فلما تأكد انه لن يصل اليها ردها الى ابراهيم معززة ومعها أثمن الهدايا ومنحها جارية اسمها « هاجر » ٠

وماذا تفعل « سارة » وهى ترى رغبة ابراهيم فى الولد ؟ لم تجد امامها الا « هاجر » فوهبتها له وشاء الله ان تلد له «اسماعيل عليه السلام» ٠

وتشـير كتب العهـد القـديم الى ذلك ٠ فقد جاء فى الاصـحاح السادس عشر من سفر التكوين : « وأما ساراى امراة ابرام فلم تلد له ، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراى لابرام هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، ادخل على جاريتى لعلى ارزق منهـا بنـين ، فسمع ابرام لقول ساراى ٠ فأخذت ساراى امراة ابرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة ابرام فى أرض كنعان وأعطتها لابرام رجلها زوجة له ، فدخل على هاجر فحبلت ، وقال لهـا ملاك الرب ها انت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسـمه اسماعيل ، لأن الرب قد سـمع لمذلتك وانه يكون انسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، وامام جميع اخوته يسكن ٠

فولدت هاجر لابرام ابنا ودعا ابرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر اسماعيل وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لمـا ولدت هاجر اسماعيل » ٠

وجاء فى الاصحاح السابع عشر « وقال ابرام لله ليت اسماعيل يعيش امامك فقال الله : بل سارة امراتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق واقيم عهدى معه عهدا ابديا لنسله من بعده ٠ وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها انا اباركه واثمره واكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا يلد واجعله امة كبيرة ، فأخذ ابرام اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من اهل بيت ابرام وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عشية كما كلمه الله ، وكان ابرام ابن تسع وتسعين حين ختن فى لحم غرلته ، وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته » ٠

اما الاصحاح الحادى والعشرين فيقول : « ورات سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابرام يمزح فقالت لابرام اطرد هذه الجارية وأبنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع إبنى اسحاق ، فبكر ابرام صباحا واخذ خبزا وقربة ماء واعطاهما لهاجر واضعا اياهما على كتفها والولد وصرفها، فمضت وتاهت فى برية سبع ولما فرغ المــاء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت ، وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت ، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : مالك ياهاجر لا تخافى لأن الله سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران واخذت له امه زوجة من أرض مصر » .

ونحن من خلال هــذه الفقرات التى جاءت فى كتب العهد القديم خاصة بقصة اسماعيل نستطيع ان ندرك مدى ما فيها من تحريف وزيف وخاصة عندما نقارن بينها ــ كما جاءت فى نصوص العهد القديم ــ وبين الحديث الصحيح الذى رواه ابن عباس قال : « أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل ام اسماعيل اتخذت منطقا لتعفى اثرها على سارة ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ احد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم مضى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ، فقالت : ياابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : اذن لا يضيعنا .

ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال : « **ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غــير ذى زرع عنــد بيتك المحــرم** » حتى بلغ

« **يشكرون** »(١٩) وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك المـاء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى ــ أو قال : يتخبط ــ فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا اقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : « صه » ــ تريد نفسها ــ ثم تسمعت فسمعت ايضا فقالت : « قد أسمعت ان كان عندك غواث » فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ــ أو قال : بجناحه ــ حتى ظهر المـاء ، فجعلت تحوضه وجعلت تغرف من المـاء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ــ او قال : لو لم تغرف من المـاء ــ لكانت زمزم عينا معينا » .

قال : فشربت وارضعت ولدها فقال لها الملك « لا تخافى الضيعـة فان ها هنا بيتا لله ، يبنيه هذا الغلام وابوه ، وأن الله لا **يضيع أهله** » .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين عن طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائدا فقالوا : ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا لهذا الوادى وما فيه من ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالمـاء فرجعوا فأخبروهم بالمـاء فأقبلوا . قال : وأم اسماعيل عند المـاء فقالوا : أتأذنين لنا ننزل عندك ؟ قالت : نعم . ولكن لا حق لكم فى المـاء عندنا . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال

---

(١٩) ابراهيم : ٣٧

النبى ﷺ : « فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم حين شب ، فلما ادرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ثم سألهـا عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة فشكت اليه ، قال : فاذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له : يغير عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل كأنه انس شيئا . فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن اقرأ عليك السلام ويقول : غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبى وقـد أمرنى أن افارقك فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى .

فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل ، قال : ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : المـاء . قال : « اللهم بارك لهم فى اللحم والمـاء » قال النبى ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه قال : فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه » قال : فاذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء اسـماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة واثنت عليه ، وسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته انا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبى وانت العتبة أمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا اسماعيل ان الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : واعينك ، قال : فان الله

امرنى ان ابنى هنا بيتا ، واشار الى اكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان « **ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم** »(٢٠) ٠ قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان « **ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم** » ٠

ونحن من خلال هذا الحديث الصحيح الذى رواه لنا ابن عباس نستطيع ان ندرك مدى الزيف والتحريف الذى حواه العهد القديم فيما يتعلق بقصة اسماعيل ٠

ومهما يكن من الأمر فقد أنجب ابراهيم اسماعيل من هاجر بعد ان تقدم به السن فتعلق بهما تعلقا شديدا ٠ وشعرت سارة بهذا التعلق فطلبت منه عليه السلام أن يذهب بهما بعيدا ، ولعل الله سبحانه وتعالى دفعها الى هذا الطلب ليقضى أمرا كان مفعولا ٠

وكما يروى الحديث السابق عن ابن عباس وجهه الله الى « برية فاران » التى هى جبال مكة ، فذهب بهما حيث أراد الله ، وتركهما مع بعض الزاد وعاد من حيث اتى ، ولما كان هذا المكان خلواً من الناس أخذت هاجر تناديه : الى من تتركنا فى هذا المكان القفر ؟ ولم يلتفت ابراهيم الى هاجر ولم يجب على سؤالها الذى تكرر مرارا ٠ فقالت له : هل أمرك الله بهذا ؟ قال لها : نعم : فقالت : مادام هذا أمر الله فهو لن يضيعنا ٠

وابتعد ابراهيم عن هاجر وابنها اسماعيل وتوجه الى ربه بهذا الدعاء الذى سجله القرآن الكريم : « **ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** »(٢١) ٠

وماذا تفعل هاجر وقد انتهى ما لديها من زاد وماء ، ها هو وليدها

---

(٢٠) البقرة : ١٢٧ (٢١) ابراهيم : ٣٧

يبلغ به الظمأ مداه ، ان عليها ان تذهب لتبحث له عن ماء يروى غلته ، لقد اخذت تصعد الصفا ثم تنزل فتصعد المروة عساها تجد من يغيثها من البشر ولكنها لم تعثر على احد فعادت الى ولدها مقدرة انهما لا محالة هالكان .

وما أن وصلت الى مكان اسماعيل حتى وجدت عينا يفيض ماؤها حفرها جبريل عليه السلام بجناحيه ، وهنا تبدد يأسها وفرحت واخذت تزم المـاء وتحوطه من كل جانب .

واستجابة لدعاء ابراهيم عليه السـلام جاءها جمـاعة من جرهم فاستأذنوها فى النزول قريبا من المـاء فاذنت لهم .

* * *

قصة ذبح اسماعيل

ومرت الأيام وكبر اسماعيل ، وكان أبوه يأتى بين الحين والحين لزيارته هو وأمه هاجر . وفى احدى هذه المرات رأى ابراهيم عليه السلام فى منامه أنه يؤمر بذبح اسماعيل . ولمـا كانت رؤيا الأنبياء صادقة ، لذلك قام من فوره يقص على اسماعيل رؤياه ويقول له : « **يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** »(٢٢) . ولم يكن أمام اسماعيل الا الامتثال لأمر الله بل لقد طلب من أبيه سرعة تنفيذ ما امره الله به قائلا : « **يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين** »(٢٣) ، واستعد ابراهيم لتنفيذ أمر الله وحانت اللحظة الحاسمة ، ولكن الله سبحانه وتعالى فدى اسماعيل بذبح عظيم : « **فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم** »(٢٤) .

* * *

---

(٢٢) الصافات : ١٠٢
(٢٣) الصافات : ١٠٢
(٢٤) الصافات : ١٠٣ ــ ١٠٧

● ايهما الذبيح اسماعيل أم اسحاق ؟

لقد حدث اختلاف بين العلماء فى ايهما كان الذبيح : اسماعيل ام اسحاق ؟ فذهب فريق الى انه اسحاق متأثرين فيما ذهبوا اليه بما ذكره كعب الأحبار فى هذا الشأن ، والذى كان يهوديا ثم أسلم فى زمان عمر بن الخطاب وكان كعب يروى ما عنده من اسرائيليات ، ولما كان كثير من الصحابة يحسنون به الظن ، لذلك فقد أخذوا مما يرويه لهم من الغث والسمين ·

أما الفريق الثانى من العلماء فقد رجحوا أن الذبيح هو اسماعيل عليه السلام ، وهو الاتجاه الذى سار عليه كثير من السلف ·

وها هو ابن كثير يروى فى تفسيره عن محمد بن كعب القرظى انه كان يقول : « ان الذى امر الله تعالى ابراهيم بذبحه من ابنيه اسماعيل ، وانا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى ابراهيم قال : « **وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين** »(٢٥) ·

ويقول تعالى : « **فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب** »(٢٦)· فلم يكن ليأمره بذبح اسحاق وله فيه من الموعد بما وعده ، وما الذى أمر بذبحه الا اسماعيل » ·

هذا ، وقد ذكر العلامة ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » من الحجج على صحة هذا الرأى ما لا يبقى معه شك فى أن الذبيح هو اسماعيل عليه السلام ·

والمعروف أن اليهود هم الذين روجوا لفكرة أن الذبيح هو اسحاق ـ كما سبق ـ وحرفوا هذا الموضوع من كتابهم ليفيد هذا المعنى · حتى لا يكون ابو العرب اسماعيل هو الذبيح ·

* * *

---

(٢٥) الصافات : ١١٢   (٢٦) هود : ٧١

● **ابراهيم واسماعيل يبنيان البيت الحرام :**

لقد استجاب الله دعاء ابراهيم وأمره ان يبنى فى هذا المكان بيتا يكون مثابة للناس وامنا ، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج يأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

لقد بوأ الله له مكان البيت ، وحدد له معالمه **« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بى شـيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السـجود»**(٢٧) .

وطلب ابراهيم من ولده اسماعيل ان يكون عونا له على اتمام هذا العمل الجليل الذى كلفه به ربه ووافق الابن وأخذ يناوله الحجارة وهو يبنى البيت الحـرام وما زالا كذلك حتى رفعـا قواعـده ، ثم دعوا ربهم قائلين :

« ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، انك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم »(٢٨) .

ولبى الله الدعاء فبعث فى ولد اسماعيل على حين فترة من الرسل محمدا ﷺ داعيا الى التوحيد الخالص مظهرا دينه على الدين كله .

وبعد .. فان دور خليل الله ابراهيم عليه السلام فى الدعوة الى التوحيد لم يقتصر فى اهميته على ما بذله من جهود حال حياته ، بل تبدو اهميتـه جلية بعـد مماته وذلك فيما تركه من ذرية امتدت بدعوته فى الأجيال من بعده وفى هذا يقول الله تعالى : **« وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون »**(٢٩) .

ويقول عز من قائل : **« ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته**

---

(٢٧) الحج : ٢٦
(٢٨) البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩
(٢٩) الزخرف : ٢٨

النبــوة والكتــاب وآتيناه أجـره فى الدنيـا ، وانه فى الآخـرة لمن الصالحين »(٣٠) ٠

والحق ان كل من اتى بعد ابراهيم من الانبياء هم ذريته عليه السلام فهو بحق أبو الانبياء ٠ ولذلك افاض القرآن فى ذكره لأنه غرس شجرة التوحيد حيث اتى أبناؤه من بعــده فتعهدوها ، وساروا على نهج أبيهم الذى جعله الله اماما ، كما جعل مقامه مصلى : « **واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للناس اماما ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين ٠ واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقــام ابراهيم مصلى ، وعهــدنا الى ابراهيــم واســماعيل ان طهــرا بيتى للطــائفين والعاكفين والركع الســجود ٠ واذ قال ابراهيم رب اجعــل هــذا بلــدا آمنا وارزق اهــله من الثمرات من آمن منهم بالله واليــوم الآخــر ، قال ومن كفــر فامتعــه قليــلا ثم اضــطره الى عــذاب النــار ، وبئس المصــير ٠ واذ يرفع ابراهيم القواعــد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا ، انك انت السميع العليم ٠ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا ، انك انت التواب الرحيم ٠ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم ٠ ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين ٠ اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين ٠ ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون**»(٣١) ٠

* * *

---

(٣٠) العنكبوت : ٢٧

(٣١) البقرة : ١٢٤ ــ ١٣٢

الفصل السادس

دعوة لوط عليه السلام

يتناول القرآن الكريم لوطا عليه السلام موضحا ما قام به من جهود فى دعوة قومه الى الله فى كثير من سوره مثل سورة الحجر والأعراف والشـعراء وهود ... الخ .

ولعل من المفيد هنا أن نقول : ان لوطا كان ابن أخى ابراهيم عليه السلام . آمن برسالته وهاجر معه من كور الكلدانيين الى ارض كنعان .

وشـاء الله أن يبعث لوطا الى أهل سدوم احـدى قرى الأردن ، وأهل هذه القرية كانوا قد دأبوا على فعل الخبائث التى لم يسبقهم اليها أحد من العالمين حيث كانوا يأتون الذكران من الناس .

فأخذ لوط يدعوهم الى الله وينهاهم عن فعل هذا العمل الآثيم وهو فعل الفاحشـة واتيان المنكر فى ناديهم . فما كان منهم الا أن هددوه باخراجه من القرية قائلين «لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين»(١) .

ولم يجد لوط عليه السلام امام هذا التهديد الا ان يعلن البراءة من قومه وقال لهم : « انى لعملكم من القالين »(٢) .

لقد لجأ لوط الى ربه طالبا منه أن ينجيه وأهله مما يعملون الا امرأته فلم يطلب لها النجاة لأنها كانت على دين قومها ، أضف الى ذلك انها كانت تخونه وتدل قومها على أضيافه ولذلك استحقت أن تكون من الباقين فى العذاب . وشاء الله ان يهلك هؤلاء القوم حيث ارسل اليهم جندا من الملائكة ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين .

* * *

---

(١) الشعراء : ١٦٧ (٢) الشعراء : ١٦٨

● **البشارة باسحاق عليه السلام :**

ان هؤلاء الرسل الذين ارسلهم الله لاهلاك قوم لوط ، كانوا قد مروا أولا على ابراهيم عليه السلام ليحملوا اليه البشرى بأن الله وهبه ولدا من زوجته سارة العجوز التى كانت عقيما ، وهـذا الولد هو اسحاق عليه السـلام ٠

وتملك العجب سارة وابراهيم ٠ لقد قالت سارة امام هذه البشرى : **« أألد وأنا عجوز وهـذا بعلى شيخا ، ان هـذا لشىء عجيب ٠ قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، انه حميد مجيد »(٣) ٠**

وبفطنة الأنبياء ادرك ابراهيم ان مهمة هؤلاء الرسل التى جاءوا من اجلها شىء آخر غير البشارة باسحاق، ولذلك قال: ما خطبكم ايها المرسلون؟ فأجابوه قائلين : انا أرسلنا الى قوم لوط ٠ وحاول عليه السلام أن يفهمهم أن لوطا فى القرية التى يريدون اهلاكها ٠ فقالوا له : نحن أعلم بمن فيها ، وسننجيه واهلهاجمعين الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين ٠

وهكذا حاول ابراهيم عليه السـلام صرف الرسل عما أرسـلوا اليه مجادلا اياهم فى ذلك حتى جاءه أمر ربه بالتوقف عن هـذا الجدال : **« يا ابراهيم أعرض عن هذا ، انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود »(٤) ٠**

ووصل رسل الله الى لوط وكانوا على هيئة غلمان مرد ، فسيىء بهم وضاق بهم ذرعا ٠ يقول الله تعالى فى ذلك : **« ولمـا جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب »(٥) ٠**

ولمـا كان الرسل على هذه الهيئة الجميلة فقد وجدت امرأة لوط الفرصة سانحة الآن تخبر قومها بخبرهم ٠ وذهبت فأخبرتهم فجاءوا الى

---

(٣) هود : ٧٢ ، ٧٣ (٤) هود : ٧٦

(٥) هود : ٧٧

لوط وضيفه مسرعين كى يتمتعوا بهذا الصيد الثمين ، وحاول لوط صرف القوم عن ضيوفه واشتد عليه الأمر .

وها هو القرآن الكريم يسجل هذا الموقف العصيب : « **وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد** »(٦) هذا ، وينبغى أن نشير الى أن لوطا حين قال لهم : « **هؤلاء بناتى هن أطهر لكم** » ما كان يقصد فعل الزنا بهم – كما صورته كتب اليهود – وانما كان يريد – والله أعلم – أن يستخدم القوم نساءهم الحلال وهم فى منزلة بناته . أو لعله عرض بناته عليهم للزواج لا ليفعلوا بهن الفاحشة كما ادعى اليهود .

وأدرك الرسل المناقشة الدائرة بين لوط وقومه فأدخلوا الطمأنينة الى قلبه كاشفين له عن هويتهم وقالوا له : « **يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ، انه مصيبها ما أصابهم ، ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب** »(٧) .

لقد أخبر الرسل لوطا أن دابر هؤلاء القوم مقطوع مصبحين وأن عليه أن يأخذ أهله ويترك القرية ليلا الى حيث أمره الله بالمضى . وحان وقت الانتقام من هؤلاء القوم وجاء أمر الله الذى جعل عالى قريتهم سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل وتم هلاك القوم الظالمين . وصدق الله اذ يقول فى ذلك : « **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد** »(٨) .

* * *

---

(٦) هود : ٧٨ – ٨٠

(٧) هود : ٨١

(٨) هود : ٨٢ ، ٨٣

الفصل السابع

التوحيد بعد ابراهيم عليه السلام ..
دعوة ولديه اسماعيل واسحاق اليه

عرفنا ـ مما تقدم ـ ان ابراهيم عليه السلام قد انجب ولدين هما « اسماعيل » من هاجر ، وهو الذى سكن بواد غير ذى زرع فى برية فاران . عند البيت الحرام .

و « اسحاق » من سارة ، وقد بقى اسحاق عليه السلام فى فلسطين . ومات ابراهيم عليه السلام تاركا لولديه رسالة التوحيد التى شاء الله ان يقوم كل منهما بالدعوة اليها .

● **اما اسماعيل عليه السلام :**

فقد حدثنا القرآن عن رسالته فى قوله تعالى : **« واذكر فى الكتاب اسماعيل ، انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا »**(١) .

لقد ارسل الله اسماعيل الى العرب الذين نشأ بينهم وتزوج منهم من قبيلة جرهم ـ كما اشار الى ذلك حديث ابن عباس السابق ـ غير أن شريعته كانت قد درست ولم يبق منها الا بقايا مما يتصل ببعض اعمال الحج وقد اختلطت هذه الأعمال عند العرب بمظاهر الشرك . وتحول بيت الله الذى بنى لعبادة الله وحده الى مكان لعبادة الأوثان .

ويشير الى حدوث الشرك فى العرب بعد اسماعيل ما ذكره الكلبى فى كتابه « الأصنام » حيث يقول :

---

(١) مريم : ٥٤ ، ٥٥ .

« ان اسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليهما ، لمـا سكن مكة وولد له بها اولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ، ضاقـت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، واخرج بعضـهم بعضا فتفسحوا فى البـلاد لالتماس المعاش ، وكان الذى سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجـرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبـة تيمنا منهم وصبابة بالحرم ، وهم بعـد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما الســلام ٠

ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واسـتبدلوا بدين ابراهيم واسـماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها على ارث ما بقى فيهم من ذكرها ، ومنهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسـماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة واهداء البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه » ٠

وهكذا انتشرت عبادة الأصنام حتى لم يبق حى ولا قبيلة فى العرب الا ولها صنم تعبده حتى جاء الاسلام والأصنام تملأ جوف الكعبة وتحيط بها وكانت كل قبيلة تحج كل عام الى صنمها تذبح له وتطيف به وتستشيره فى كل ما يعن لها من أمور ٠

هذا ٠٠ وسوف نتابع الحديث عن هذا الموضوع بشىء من التفصيل عند كلامنا عن آخر الرسالات السماوية رسالة التوحيد فى صورتها الكاملة التى جاءت على يد محمد ﷺ ٠

❊ ❊ ❊

● **واما اسحاق عليه السلام :**

فقد ورث أباه فى حمل رسالات الله والدعوة الى توحيده ٠٠ والحق أن الكتب السماوية قد أفاضت فى ذكره والبشارة به ٠ فقد

بشرت به كتب العهد القديم كما تعددت البشارة به فى القرآن الكريم .

جاء فى سفر التكوين من كتب « العهد القديم » : « وقال الله لابراهيم : سارای امراتك لا تدع اسمها ساراى ، بل اسمها سارة واباركها واعطيك أيضا منها ابنا ، فخر ابراهيم ساجدا وضحك ، وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين ؟ وقال ابراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش امامك ، فقال الله : بل سارة امراتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق واقيم عهدى له عهدا ابديا لنسله من بعده ، وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها انا اباركه واثمره واكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا يلد واجعله امة كبيرة ولكن عهدى اقيمه لاسحاق الذى تلده لك سارة »(٢) .

ثم جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين أن سارة ولدت اسحاق وختنه ابراهيم وهو ابن ثمانية ايام وكان ابراهيم قد اوفى على المائة .

كما جاءت البشارة باسحاق فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام ، فما لبث ان جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط . وامراته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ، ان هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، انه حميد مجيد »(٣) .

كما جاءت البشارة به فى قوله تعالى : **« ونبئهم عن ضيف ابراهيم . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون . قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا**

---

(٢) الاصحاح السابع عشر ـ سفر التكوين .
(٣) هود : ٦٩ ـ ٧٣

بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين • قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »(٤) •

وفى قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين • اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون • فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم • فاقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم • قالوا كذلك قال ربك ، انه هو الحكيم العليم »(٥) •

هذا ولقد ورد فى القرآن ذكر اسحاق غالبا مقرونا بأبيه ابراهيم مما يوحى بأن ابراهيم قد عاش حتى كبر اسحاق وبلغ مبلغ الرجال •

فقد جاء فى سفر التكوين من كتب العهد القديم أن ابراهيم لما شاخ وتقدمت به الأيام وباركه الرب فى كل شىء قال ابراهيم لعبده كبير بيته المتولى على كل ما كان له « ضع يدك تحت فخذى فأستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق »(٦) •

لقد بشر الله ابراهيم باسحاق نبيا من الصالحين وفى هذا يقول الله تعالى : « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين • وباركنا عليه وعلى اسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين »(٧) •

كما أن اسحاق من الأنبياء الذين يجب الايمان بما أنزل اليهم وفى هذا يقول الله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٨) •

(٤) الحجر : ٥١ ـ ٥٦ (٥) الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠
(٦) الاصحاح الثالث والعشرين ـ سفر التكوين •
(٧) الصافات : ١١٢ ، ١١٣ (٨) البقرة : ١٣٦

كما انه عليه السلام فى عداد الرسل الذين أمر النبى ﷺ ان يذكرهم لمـا لهم من شأن عظيم فى مقام الدعوة الى توحيد الله والقدوة الحسنة وفى هذا يقول عز من قائل : « **واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار • انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار • وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** »(٩) •

* * *

(٩) سورة ص : ٤٥ ـ ٤٧

الفصل الثامن

يعقوب عليه السلام يدعو الى التوحيد ويوصى به

انجب ابراهيم ابو الأنبياء عليه السلام اسماعيل من هاجر ، كما انجب اسحاق من سارة امرأته العجوز بعد ان تقدمت به السن وحين بشر الله سبحانه باسحاق جاءت مع هذه البشارة البشارة بابنه يعقوب ٠

لقد بشر الرسل سارة باسحاق كما بشروها بأن اسحاق سوف ينجب يعقوب ، وها هو القرآن يقص علينا هذه البشارة قائلا : « **وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بأسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب** »(١) ٠

كما وردت البشارة لابراهيم بابنه اسحاق وابن ابنه يعقوب فى أكثر من آية فى القرآن فى قوله تعالى : « **ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ٠ وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين** »(٢) ٠

وفى قوله تعالى : « **ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، كلا هدينا** »(٣) ٠

هذا ٠٠ وقد جرى يعقوب عليه السلام على سنة أبويه ابراهيم واسحاق فى التمسك بالتوحيد الخالص لله ، وتوصية بنيه بالثبات على هذه العقيدة « **ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون ٠ أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون** »(٤) ٠

---

(١) هود : ٧١
(٢) الأنبياء : ٧٢ ، ٧٣
(٣) الأنعام : ٨٤
(٤) البقرة : ١٣٢

كما كان عليه السلام يمثل حلقة من حلقات الكفاح فى سبيل التوحيد ، وكان أبا ينتسب اليه هـذا الشعب الكبير ـ شعب اسرائيل ـ الذى لعب دورا كبيرا على مسرح الحياة ، وتقلبت عليه اطوار عدة تأرجح فيها بين الوثنية والتوحيد كما بعثت فيه كثرة من الرسل والأنبيـاء الذين كانوا حراسا على عهد الله وعلى توجيه هـذا الشعب العنيد لحمايته من الشطط والانحراف والضلال • الأمر الذى سوف نتناوله بالتفصيل عند كلامنا عن رسالة موسى عليه السلام •

ان **يعقوب** هو « اسرائيل » الذى ينتسب اليه هذا الشعب الذى قص علينا القرآن كثيرا من جرائمه خاصـة فى سورتى البقرة والمـائدة ، وهو المعروف فى التاريخ باسم « **شعب اسرائيل** » •

لقد عاش عليه السلام مأساة تضمنتها سورة يوسف وذلك حين مكر اخوة يوسف به واجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب فحزن **يعقوب** على ولده وبكاه حتى ابيضت عيناه ، وزاد من حزنه وهمه ذهابهم بأخيه الآخر بنيامين الذى احتجزه يوسف عليه السلام بحيلة بارعة حين دس صواع الملك فى رحله « **ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون • قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون • قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم • قالوا تالله لقـد علمتم ما جئنا لنفسـد فى الأرض** وما كنا سارقين • **قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين • قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين • فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله** »(٥) •

لقد صبر عليه السلام على المحنة واخلص فى شكواه لله واستعان به على كيد ابنائه ولم ييأس من روحه وما ذاك الا لأنه رسول كريم •

* * *

---

(٥) يوسف : ٧٠ ـ ٧٦

الفصل التاسع

مرحلة جديدة للتوحيد على يد يوسف عليه السلام

شاء الله تعالى أن يظهر يوسف فى مصر لتكون مركزا جديدا تبدأ منه مرحلة جديدة فى الدعوة الى عبادة الله الواحد بدلا من فلسطين فقد جاء يوسف الى مصر وهو غلام صغير حين كاد له اخوته والقوه فى غيابة الجب . وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ليستقى لهم من البئر فتعلق يوسف برشاء الدلو وخرج . وما أن رآه الرجل حتى هتف : يابشرى هـذا غلام وأسروه بضاعة وعرضوه للبيع فى أسواق مصر فبيع بثمن بخس دراهم معـدودة .

وكان الذى اشتراه هو عزيز مصر الذى أوصى به امرأته خيرا وقال لها : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وفى بيت العزيز مر يوسف باختبار رهيب .

ذلك أن امرأة العزيز ـ ذات الجاه والسلطان والجمال الرائع ـ رأت فى يوسف جمالا فائقا وشبابا غضا ووسامة منقطعة النظير وفوق ذلك فهو يقيم فى بيتها ، لقد راودته عن نفسه ، وغلقت عليه الأبواب وقالت : هيت لك .

وماذا يفعل يوسف الآن وهو أمام موقف حرج وامتحـان رهيب ؟ امرأة طاغية الجمال تقف امامه وقد هيأت نفسها بكل وسائل الاغراء . انها الآن تطلب منه أن يفعل معها الاثم والظروف كلها مهيأة لاتمـام هـذه الجريمة .

ولكن الصديق امام كل هـذه المغريات يجيبها بجواب حاسم يقطع طمعها فيه ويبدد كل آمالها ، ويعيد امرأة العزيز الى ضميرها فيقول :

« معاذ الله ، انه ربى احسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون »(١) ٠

وأمام هذا الجواب القاطع من جانب يوسف لم تجد امراة العزيز الا ان تهم به لتحمله بالقوة على ما تريد ٠ وكان فى مكنته أن يهم بها لولا ما آراه من البرهان على قبح ما دعته اليه ، ويمكن أن يقال : ان يوسف هم بهـا ليصرفها عنه : **« كذلك لنصرف عنه السـوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين »(٢) ٠**

وامام هـذا الموقف الرهيب انفلت يوسف هاربا نحو الباب ، ولكن المراة جرت وراءه وامسكت بقميصه فقدته ، **والفيا سـيدها لدى الباب** فابتدرته المراة ـ وهى المغيظة المحنقة ـ **بقولها : « ما جزاء من اراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب اليم »(٣) ٠**

انها بهذا القول تريد ان تحمل التهمة ليوسف عليه السلام وتدفعها عن نفسها فتقترح انزال العقوبة به ، ولكن يوسف يبادر بدفع التهمة عن نفسه قائلا : **« هى راودتنى عن نفسى »(٤) ، « وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ٠ وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ٠ فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ، ان كيدكن عظيم »(٥) ٠**

ودخل يوسف السـجن بعد ظهور براءته كما دخل معـه فتيان ، وهما اللذان طلبا منه أن يعبر لهما عن رؤياهما ، لقد اخبرهما يوسف بما انعم الله به عليه من علم تعبير الرؤيا وهجر الملل الباطلة وتمسكه بدين التوحيد والايمان دين آبائه وأجداده ، وبدأ يدعو الفتيين الى التوحيد والايمان بالله إلواحد وترك عبادة الأرباب المتفرقة التى ما انزل الله بها من سـلطان ، والتى لا تزيد فى حقيقتها عن كونها أسـماء سـموها هم وآباؤهم ٠

---

(١) يوسف : ٢٣
(٢) يوسف : ٢٤
(٣) يوسف : ٢٥
(٤) يوسف : ٢٦
(٥) يوسف : ٢٦ ـ ٢٨

وفى هذا يقول الله تعالى حكاية عن يوسف : « **انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا ان نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »(٦) ٠

ثم أخذ بعد ذلك يعبر لصاحبيه فى السجن رؤياهما فقال : « **ياصاحبى السجن اما احدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان** »(٧) ٠

ولما ظن يوسف نجاة أحد صاحبيه من السجن طلب منه ان يذكره عند الملك بعد خروجه ولكن صاحبه نسى هذا الطلب فلبث يوسف فى السجن بضع سنين الى أن طلب الملك من يعبر له رؤياه التى رآها فتذكر الذى نجا من السجن يوسف وقال : « **انا أنبئكم بتأويله فأرسلون** »(٨) وذهب الى يوسف وطلب منه أن يعبر رؤيا الملك ففعل عليه السلام ، وقام بتعبير الرؤيا فاستدعاه الملك من السجن ووجد يوسف الفرصة متاحة لاظهار براءته مما ألصقته به امرأة العزيز ، فطلب منه سؤال النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز لمشاهدة يوسف وافتتانهن به وجاءت النسوة فشهدن له بالعصمة ونفين عنه التهمة ، واعترفت امرأة العزيز اثر ذلك على نفسها بأنها هى التى راودته عن نفسه مما جعل العزيز يحبه ويقدره ويزيد فى تقريبه منه قائلا له : « **انك اليوم لدينا مكين امين** »(٩) ٠

لقد أراد الله ليوسف ــ بعد هذه الظروف العصيبة التى مر بها ــ أن يتمكن من أرض مصر حيث جعله الملك على خزائن الأرض ٠

وجاء اخوته الى مصر وهو على هذه الحال ــ يلتمسون الميرة عندما

---

(٦) يوسف : ٣٧ ــ ٤٠
(٧) يوسف : ٤١
(٨) يوسف : ٤٥
(٩) يوسف : ٥٤

قحطوا فاحتال يوسف عليهم حتى جاءوا له بأخيه ، فاستبقاه معه كما سبق والح اخوته فى ان يأخذ يوسف احدهم مكانه لأن أباه شيخ كبير وقد أوصاهم بالمحافظة عليه قائلا : « **لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم** »(١٠) ٠

ورفض يوسف هذا العرض وقال : « **معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده** »(١١) ٠

فانصرف الاخوة يائسين الا الأخ الأكبر فقد امتنع عن الرحيل معهم ٠ وذهبوا الى ابيهم فى فلسطين وليس معهم اخوهم بنيامين فسألهم أبوهم عنه فقالوا له : « **ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ٠ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، وانا لصادقون** »(١٢) ٠

فاتهم الأب أبناءه بالتفريط فى حق أخيهم كما فرطوا فى حق ابنه يوسف من قبل ، لقد تذكر يوسف وأخاه فبكى بشدة حتى ابيضت عيناه من الحزن وطلب من ربه أن يرد عليه يوسف وأخاه وقال لأبنائه « **اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله** »(*) ، وعاد الأبناء الى مصر ودخلوا على يوسف وقالوا له : « **يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، ان الله يجزى المتصدقين** »(١٣) ٠

فقال لهم يوسف : « **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون** » ؟ (١٤) فوجهوا اليه السؤال قائلين : « **أانك لأنت يوسف** » ؟٠ وحينئذ وجد يوسف الفرصة سانحة لأن يكشف لهم عن نفسه فقال لهم : « **أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين** »(١٥) ٠

---

(١٠) يوسف : ٦٦ (١١) يوسف : ٧٩
(١٢) يوسف : ٨١ ، ٨٢ (*) يوسف : ٨٧ (١٣) يوسف : ٨٨
(١٤) يوسف : ٨٩ (١٥) يوسف : ٩٠

واعترف اخوته بالخطأ الذى ارتكبوه وطلبوا منه ان يستغفر لهم فوعدهم بذلك . واعطاهم قميصه وامرهم ان يذهبوا به ويلقوه على وجه ابيه وفعلوا ، فارتد الأب بصيرا .

وجاء يعقوب عليه السلام وآله الى مصر . فآوى يوسف أبويه اليه وقال لأهله : « **ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين** »(١٦) .

ورفع عليه السلام أبويه على العرش وخروا له سجدا ، واخذ يذكر أباه بالرؤيا التى قد رآها من قبل ان يمر بهـذه الشدائد كلهـا وقال : « **يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ، ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم** »(١٧) .

وانما عرضنا قصة يوسف على هذا النحو لنبرز مدى ما عاناه عليه السـلام من محن قابلها بصبر كريم حتى صرف الله عنه السـوء والفحشاء .

* * *

رسالة يوسف كانت فى أهل مصر

ونحن من خلال ما سبق نستطيع أن نقول فى يقين : ان مصر كانت مجال رسالة يوسف عليه السلام فقد أرسل عليه السلام فى أهلها ليدعوهم الى عبادة الله وحده ونؤيد هذا بقول الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون وهو يخاطب قومه ويحثهم على الايمان بموسى عليه السلام : « **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسـولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** »(١٨) .

أما متى أرسله الله ؟ فان التاريخ أمام هذا السؤال يصمت تماما ،

---

(١٦) يوسف : ٩٩
(١٧) يوسف : ١٠٠
(١٨) غافر : ٣٤

ولا نجد فيه ما يحدد الزمن الذى ارسل فيه عليه السلام ، كما لا نجد من النصوص ما يحدد لنا متى ارسل ؟

ومع هذا فنحن نرى انه عليه السلام ارسل فى الفترة التى قضاها فى السجن وذلك للأسباب الآتية :

اولا : لانه حين دخل السجن تكلم مع صاحبيه اللذين دخلا معه فعبر رؤياهما ودعاهما الى توحيد الله وقال لهما : « **ذلكما مما علمنى ربى** »(١٩) وهذا يكاد يكون دلالة صريحة على حصول النبوة له عليه السلام فى هذه الفترة ٠

ثانيا : ان وجود يوسف فى السجن افرغ لقلبه لما فى السجن من عزلة وانقطاع مما من شأنه ان يجعله اكثر تهيئا لتلقى الرسالة ، اضف الى ذلك ان ارساله فى ذلك الوقت هو بمثابة تعويض له عليه السلام عما كان يلقاه فى سجنه من قسوة ووحشة ٠

ثالثا : انه فى السجن كان يدعو الناس الى ملة آبائه ابراهيم واسحاق ويعقوب وهى ملة تقوم على التوحيد الخالص من الشرك واهله ، كما كان يدعو صاحبيه فى السجن الى التفكير والتأمل ليصلا من خلال ذلك الى معرفة الله الواحد القهار «**ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** »(٢٠) ٠ ثم يبين لهما مدى تفاهة عقول قومهم حين يعبدون تلك المعبودات الباطلة فيقول : « **ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم** »(٢١) ٠

واذا كانت النصوص لم تحدثنا عن مدى استجابة الناس لرسالته عليه السلام فانه لا جدال فى ان بعض النفوس قد استجابت لدعوته وان رسالته كانت منارة وهداية لبنى اسرائيل من بعده حيث حفظوها وساروا على منوالها مدة اقامتهم بمصر حتى خرجوا منها مع موسى عليه السلام ٠

---

(١٩) يوسف : ٣٧
(٢٠) يوسف : ٣٩
(٢١) يوسف : ٤٠

وقد يقال : ان هناك من النصوص ما يفيد أن الله اوحى اليه قبل ان يدخل السجن وذلك فى قوله تعالى فى أول سورة يوسف بعد ان القاه اخوته فى غيابة الجب **«وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون»**(٢٢) ٠

ونحن نقول : انه فى هذا الموقف كان حدثا لم يبلغ الحلم فكيف يكلف برسالة ؟ وعلى تسليم انه قد بلغ فان هذا الوحى الذى تتحدث عنه الآية لعله من قبيل الالهام وبذلك يكون كالوحى الذى اوحاه الله لأم موسى ٠ أو لعل هذا الوحى كان ارهاصا والارهاص يكون قبيل النبوة ٠

وبعد ٠٠ فقد مكن الله ليوسف فى ارض مصر حيث استقدم اليه ابويه واخوته وسائر اهله ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ فاقاموا وطالت مدة مقامهم بها قرونا عدة حتى كثروا وزاد عددهم الى درجة دفعت فرعون مصر الى التخوف منهم فانزل عليهم جام غضبه وسامهم اشد انواع العذاب فكان يستبقى نساءهم للخدمة ويذبح ابناءهم ، ويستخدم الأحياء منهم فى الأعمال الشاقة ٠ يقول الله تعالى : **« ان فرعون علا فى الأرض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ٠ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ٠ ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »**(٢٣) ٠

***

---

(٢٢) يوسف : ١٥

(٢٣) القصص : ٤ ــ ٦ ٠

الفصل العاشر

شعيب عليه السلام .. يدعو قومه للتوحيد

ان الهتاف الذى هتف به انبياء الله جميعا ودعوا اقوامهم اليه هو توحيـد الله وافراده بالعبادة دون سواه .

وها هو القرآن الكريم يلفتنا الى ما قام به نبى الله شعيب عليـه السلام من جهود فى دعوة قومه الى التوحيد حين بعثه الله فى أهـل مدين . وقد كانوا مشركين يعبدون الأوثان ، ويطففون الكيل ويخسرون الميزان ، لقد بدأ عليه السلام يدعو قومه الى عبادة الله الواحد وينهاهم عما تعودوه من قبيح العادات ، كما اخذ يذكرهم بما أضفاه الله عليهم من نعم لا تحصى .

ولكن قومه بدلا من ان يستجيبوا له ردوا عليه فى غلظة قائلين : **« ياشعيب اصلاتك تامرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل فى اموالنا ما نشاء ، انك لأنت الحليم الرشيد »**(١) .

فما كان جوابه على هذا الرد الا ان قال لهم فى لطف وأدب **« يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد ان أخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيـقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود »**(٢) .

غير ان القوم لم يستجيبوا لهذا النصح واصموا آذانهم عنه وراحـوا يهددون شعيبا عليه السلام بالرجم قائلين : **« ياشعيب ما نفقه كثيرا مما**

---

(١) هود : ٨٧ .

(٢) هود : ٨٨ — ٩٠ .

تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما انت علينا بعزيز »(٣) ٠

وأمام هذا التهديد قال لهم : « **يا قوم ارهطى اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط ٠ وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب »(٤) ٠**

ولما كان عليه السلام كما روى ــ خطيب الأنبياء ــ فقد اطال القول معهم بألطف العبارات وأحسن البيان ولقد بذل لهم من خلال هذا القول غاية جهده فى النصح والارشاد ، والقوم يتمادون فى الغى **والفساد ، اللهم الا قليلا** ممن استجاب منهم لدعوته ٠

لقد هددوه ومن آمن معه باخراجهم من القرية قائلين : « **لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا »(٥) ٠**

فأجابهم عليه السلام قائلا « **أو لو كنا كارهين ٠ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »(٦) ٠**

لقد استحق أهل مدين ان ينزل بهم عقاب الله بعد ان صدوا عن سبيله من آمن واستكبروا وقعدوا بكل صراط يوعدون ، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة حيث ارسل عليهم سحابة اظلتهم فى يوم شديد الحرارة فلما وجدوا بردها وجاءتهم منها ريح طيبة تنادوا حتى اذا اجتمعوا تحتها قلبها الله عليهم نارا فاحترقوا ورجفت بهم الأرض وذلك جزاء الظالمين « **فاخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين ٠ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ٠ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين »(٧) ٠**

***

---

(٣) هود : ٩١ (٤) هود : ٩٢ ، ٩٣ (٥) الأعراف : ٨٨

(٦) الأعراف : ٨٨ ، ٨٩ (٧) الأعراف : ٩١ ــ ٩٣ ٠

الفصل الحادي عشر

رسالة موسى عليه السلام

شاء الله ان يظهر موسى عليه السلام لتبدأ مرحلة من مراحل النضال على يديه فى سبيل نشر عقيدة التوحيد يساعده فى ذلك اخوه هارون ، كما يعد ظهوره بداية مرحلة جديدة وهامة فى حياة بنى اسرائيل ٠

ولا شك فى ان القرآن الكريم قد تناول موسى منذ ولادته مبينا فى وضوح ويسر ان امه بعد ان ولدته خافت عليه من فرعون الذى علا فى الأرض وجعل اهلها شيعا فأخذ يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ٠ فوضعته فى تابوت والقته فى اليم وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ٠ فالتقطه آل فرعون ٠ حيث تربى عليه السلام فى بيته ٠

وهنا تبدو مظاهر العناية الالهية به عليه السلام غاية فى الوضوح ٠٠

ام تخاف على وليدها بطش فرعون فتلقى به فى اليم مفوضة أمرها وامره الى الله فيحفظه الله من الماء الى أن يتسلمه عدوه ، وما ذاك الا لأن الله طمأنها وقال لها : **« لا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »**(١) ٠

وحين هم فرعون بقتله شاء الله أن تتدخل امراته فتطلب منه ان يبقى على حياته ليكون قرة عين لها وله ، وليتخذوه ولدا فيستجيب لها فرعون ويبقى موسى فى بيته معززا مكرما ليقوم بالمهمة التى سيكلفه الله بها وهى الدعوة الى رسالة التوحيد لله رب العالمين ٠

والحق ان الكثير من سور القرآن قد تناولت موسى فى مراحل

---

(١) القصص : ٧ ـ بلفظ : « ٠٠٠ ولا تخافى » ٠

حياته وجهاده فى سبيل دعوته ويبدو هــذا واضحا فى مستهل ســـورة القصص وطه وفى غيرهما من الســـور مثل ســورة الشـــعراء وغافر والأعراف ويونس ... الخ .

ويبين لنا القرآن الكريم أن موسى قبل نبوته قد مر بمرحلة اعداد وتمهيد هيأه الله فيها لحمل الرسالة الكبرى مصداقا لقوله تعـــالى : **« ولتصنع على عينى »**(٢) ، **« واصطنعتك لنفسى »**(٣) وهذه المرحلة هى التى قتل فيها المصرى حين استغاثه عليه الاسرائيلى ، والتى أراد موسى فى اليوم التالى لهذه الواقعة ان يبطش بمصرى آخر حين استصرخه ذلك الاسرائيلى الذى كان قد استنصره بالأمس . لولا ان ذلك المصرى كان يعرف سر تلك الحادثة التى حدثت بالأمس فأسرع يخبر القوم بحقيقة موسى وانه اسرائيلى يعمل على مناصرة الاسرائيليين .

وهنا ائتمروا به ليقتلوه ، لولا أن جاءه رجل من اقصى المدينــة يســعى فاخبره بما ائتمر عليه القوم ونصحه بالخروج من مصر **« فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين »**(٤) .

وتوجه عليه السلام تلقاء مدين طالبا من ربه ان يهديه سواء السبيل **« ولمــا ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شــيخ كبير . فسقى لهما .. »**(٥) .

وذهبتا الى ابيهما فأخبرتاه بما حدث ، فأرسل الأب احدى ابنتيــه الى موسى فجاءته تمشى على استحياء ودعته لمقابلة ابيها ليجزيه اجر ما ســقى لهما وفعل موسى عليه الســـلام **« فلما جــاءه وقص عليــه القصص »** قال له الأب **« لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين »**(٦) .

وطلبت احداهما من أبيها ان يستأجره فهو القوى الأمين وهنا قال

---

(٢) طه : ٣٩ . — (٣) طه : ٤١ .
(٤) القصص : ٢١ — (٥) القصص : ٢٣ ، ٢٤
(٦) القصص : ٢٥

الأب لموسى « **انى أريد أن انكحك احدى ابنتى هاتين على أن تاجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك** »(٧) .

وقبل موسى هذا العرض وقضى الأجل الذى كان مضروبا بينه وبين حميه وهو عشر سنين استأجره فيها لرعى الغنم فى مقابل أن يزوجه ابنتـه .

وهنا تبدأ حلقة جديدة وخطيرة فى حياته عليه السلام حيث اختاره الله سبحانه ليكون نبيا مرسلا يدعو الناس الى عبادة الله الواحد .

فبعد أن قضى موسى الأجل وسار بأهله راجعا الى مصر عابرا صحراء سيناء ، آنس من جانب الطور نارا ، فى ليلة شديدة البرودة فى تلك البقعة الصحراوية التى تعمل الريح فيها عملها . وفى هذه الظروف القاسية أراد موسى أن يقتبس جذوة من تلك النار لأهله ليدخل عليهم الدفء بها ، وتمنى لو وجد من يدله على طريقها ، وسار موسى فى اتجاه النار ، فلما أتاها واقترب منها لم يجد نارا ، وانما وجد عليه السلام نورا قد تغشى الشجرة المباركة .

لقد أتاه الوحى فى هذه اللحظات من قبل الشجرة حيث ناداه ربه قائلا « **ياموسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك ، انك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** »(٨) .

ولكى يسلح الله موسى بالآيات قبل أن يأمره بالذهاب الى فرعون ، ولكى يدخل عليه الأنس بالخطاب سأله قائلا : « **وما تلك بيمينك ياموسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال القها ياموسى . فألقاها فاذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف ،**

---

(٧) القصص : ٢٧ (٨) طه : ١١ ـ ١٦

سنعيدها سيرتها الأولى • واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى • لنريك من آياتنا الكبرى • اذهب الى فرعون انه طغى • قال رب اشرح لى صدرى • ويسر لى أمرى • واحلل عقدة من لسانى • يفقهوا قولى • واجعل لى وزيرا من أهلى • هارون أخى • أشدد بـه أزرى • واشركه فى أمرى • كى نسبحك كثيرا • ونذكرك كثيرا • انك كنت بنا بصيرا • قال قد أوتيت سؤلك ياموسى »(٩) •

لقد من الله على موسى حيث اختاره لحمل الرسـالة وحقق له ما تمناه فجعل أخاه هارون وزيرا له يشاركه فى حمل أعباء الرسالة •

لقد أرسل الله موسى وهارون الى فرعون وقومه وأمرهما أن يكونا متصفين باللين والرفق فى الدعوة : « **اذهبا الى فرعون انه طغى • فقولا له قولا لينـا لعله يتذكر أو يخشى • قالا ربنـا اننـا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغـى • قال لا تخافا ، اننى معكما أسمع وأرى • فأتيـاه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسـلام على من اتبع الهدى • انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى »**(١٠) •

ودارت رأس الطاغية عندما قرعت الدعوة سمعه وأسماع الملأ الذين حوله ، لقد رأى فى دعوة التوحيد التى جاء بها موسى وهارون بداية الخطر على ملكه فسأل موسى مبديا تجاهله وانكاره لأن يكون هناك اله غيره قائلا : « **وما رب العالمين** »(١١) فقال موسى عليه السلام له : « **رب السموات والأرض وما بينهما ، ان كنتم موقنين** »(١٢) •

ولـما **افحمته الحجة وبهته الدليـل** التفت الى الملأ من حـوله قائلا لهم : « **ألا تستمعون** » ؟(١٣) **فبادرهم موسى** عليه السلام بقوله : « **ربكم ورب آبائكم الأولين** »(١٤) •

---

(٩) طه : ١٧ ـ ٣٦
(١٠) طه : ٤٣ ـ ٤٨
(١١) الشعراء : ٢٣
(١٢) الشعراء : ٢٤
(١٣) الشعراء : ٢٥
(١٤) الشعراء : ٢٦

وأمام هذه الآيات البينات لم يجد فرعون ردا ، فخرج من المناظرة الى السب والمهاترة حيث قال فى هذيان : « **ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون** »(١٥) •

فقذف موسى عليه السلام فى وجه فرعون بثالثة الآيات فقال : « **رب المشرق والمغرب وما بينهما ، ان كنتم تعقلون** »(١٦) •

وتملك الغضب فرعون وخرج عن صوابه فلجأ الى أسلوب التهديد والوعيد قائلا لموسى : « **لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين** »(١٧) ولم يجد موسى أمام هذا الموقف العنيد الا ان يلقى فى وجه فرعون بالآية الكبرى التى تسكته فقال له : « **أو لو جئتك بشىء مبين • قال فات به ان كنت من الصادقين • فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين • ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين** »(١٨) •

وهكذا علت كلمة التوحيد فى الجولة الأولى التى انتصر فيها الحق على الباطل •

وماذا يفعل الطاغية أمام هذا الانتصار الذى أحرزه موسى ؟ وكيف يتصرف وقد رأى الدهشة تعقد السنة الحاضرين من ملئه وتملأ قلوبهم اعجابا وارتياعا لما رأوه من آيات عظيمة ؟

لقد أراد أن يهون من شأن هذه الآيات الكبرى التى تدل على صدق موسى فى دعواه فادعى أنها من جنس السحر الذى يقوم به السحرة ولكنه مع هذا وجد نفسه يصف موسى ببلوغه درجة المهارة والحذق فى هذا الباب فقال لهم : « **ان هذا لساحر عليم • يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون** » ؟(١٩) •

لقد أراد فرعون من وراء هذا القول ان يؤلب قومه على موسى

---

(١٥) الشعراء : ٢٧
(١٦) الشعراء : ٢٨
(١٧) الشعراء : ٢٩
(١٨) الشعراء : ٣٠ — ٣٣
(١٩) الشعراء : ٣٤ ، ٣٥

فيشيرون عليه بقتله هو واخيه ليستريح منهما ويسلم له ملكه . ولكن القوم لم يحققوا مراده وانما أشاروا عليه بأن يجمع السحرة من كل انحاء مملكته لينازلوا موسى ويغالبوه .

واخذ فرعون بمشورتهم وجمع عباقرة السحر وفرسانه لميقات يوم معلوم ومعهم كل ما يقدرون عليه من حبال وعصى . وانتهز السحرة هذه الفرصة فاشترطوا على فرعون انهم ان غلبوا موسى فى هذه المباراة ليكونن لهم الأجر على هذا الانتصار لقد قالوا له : « **ائن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين . قال نعم وانكم اذن لمن المقربين** »(٢٠) .

وجاء اليوم الحاسم ـ يوم الزينة ـ الذى واعدهم عليه موسى عليه السلام وتوافد الناس من أول النهار . لقد حشروا ضحى ليروا ماذا يكون من أمر موسى مع عباقرة السحر وفرسانه . وحانت اللحظة الحاسمة التى سيتقرر فيها مصير موسى ودعوته .

لقد بدأ موسى المباراة بأن توجه الى السحرة بالنصح قائلا لهم : « **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى . فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى . قالوا ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى** »(٢١) .

لقد اتفق السحرة اذن على منازلة موسى ولم يستجيبوا لنصحه طمعا فيما وعدهم فرعون به من أجر وزلفى . فقالوا : « **ياموسى اما ان تلقى واما ان نكون أول من القى . قال بل القوا ، فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف انك انت الأعلى . والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث اتى** »(٢٢) .

لقد طمأن الله رسوله موسى واخبره انه ناصره فلا داعى للخوف .

---

(٢٠) الشعراء : ٤١ ، ٤٢ (٢١) طه : ٦١ ـ ٦٤
(٢٢) طه : ٦٥ ـ ٦٩

وهنا ألقى موسى عصاه فانقلبت حية عظيمة وأخذت تبتلع كل ما أفكه السحرة من غير أن ينتفخ بطنها ، أو يزيد حجمها ٠

ولما كان هؤلاء السحرة أولى معرفة بالسحر فقد عرفوا أن ما فعله موسى أمامهم ليس من جنس ما عندهم ٠ فخروا سجدا ولم يملكوا أمام هول المفاجأة الا أن يعلنوا ايمانهم برب هارون وموسى ٠

وتملك الغضب فرعون وهو يرى السحرة يدخلون فى دين موسى ويعلنون ايمانهم بربه ٠ لقد خشى أن يتبعهم الناس فى هذا الايمان فقال لهم على سبيل التمويه للقوم : « **آمنتم له قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل** »(٢٣) وحسب الطاغية أن القوم بهذا التهديد سيعدلون عن ايمانهم ونسى أن الايمان قد تمكن من قلوبهم ٠ فأجابوه فى لهجة المؤمنين الصابرين الذين ينظرون الى ما عند الله من غفران ورحمة : « **لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ٠ انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى** »(٢٤) ٠

ونفذ الطاغية وعيده فى هؤلاء ، لقد قتلهم وصلبهم ، وراحوا شهداء ابرارا فى سبيل عقيدة التوحيد والايمان بالله الواحد القهار ٠

ورجع فرعون بعد أن نفذ جرمه الشنيع فى هؤلاء المؤمنين الأوفياء يستخف قومه بزخرف القول قائلا : « **ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ٠ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ٠ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ٠ فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين** »(٢٥) ٠

هكذا انتصر الحق على الباطل فى الجولة الثانية ، وحسب أنصارا من أهل مصر كان يمكن أن يكونوا نواة للتوحيد بين أهلها ، لولا أن

---

(٢٣) طه : ٧١ (٢٤) طه : ٧٢ ، ٧٣

(٢٥) الزخرف : ٥١ ــ ٥٤

فرعون عاجلهم بهذه العقوبة الجائرة ليمنع التفاف الجماهير حول هؤلاء الأنصار ، ويحول دون اقتدائهم بهم فى الايمان برب موسى وهارون .

وبقى موسى وهارون فى مصر بين قومهم بنى اسرائيل ينتظرون أمر الله لهم بالهجرة والخلاص من ظلم فرعون وجبروته .

وجاء الوحى الالهى لهما : « **أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين** »(٢٦) .

وتحت وطأة فرعون وأعوانه من الجلادين شكا بنو اسرائيل لموسى ما يلاقونه من ذلة وهوان وذبح للأبناء واستخدام للنساء فقال لهم موسى : « **استعينوا بالله واصبروا ، ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** »(٢٧) .

لقد عاود فرعون سيرته الأولى فى العسف ببنى اسرائيل من تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، كما عاد يستأذن قومه فى قتل موسى قائلا لهم : « **ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد** »(٢٨) .

وبينما فرعون يتوجه الى قومه بهذا الكلام ، اذا بصوت ايمان ينبعث هاتفا فى قومه بالموعظة ، لقد أخذ صاحب هذا الصوت ينذرهم بسوء العاقبة ان هم أصروا على كفرهم ومكرهم .

لقد كان صاحب هذا الصوت هو مؤمن آل فرعون المسمى بـ « حزقيل » وها هو القرآن يسجل هذه الموعظة البليغة فى قوله تعالى : « **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول**

---

(٢٦) يونس : ٨٧
(٢٧) الأعراف : ١٢٨ ، ١٢٩
(٢٨) غافر : ٢٦

ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبــه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب • ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ، قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد • وقال الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب • مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد • وياقوم انى أخاف عليكم يوم التناد • يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضــلل الله فما له من هاد • ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعــده رسولا ، كذلك يضــل الله من هو مسرف مرتاب • الذين يجادلون فى آيات اللــه بغير سـلطان أتاهم ، كبر مقتا عنــد الله وعنــد الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار • وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب • أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنــه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون ســوء عمله وصد عن الســبيل ، وما كيد فرعون الا فى تباب • وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهــدكم سبيل الرشــاد • ياقوم انما هذه الحيــاة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار • من عمــل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو انثى وهــو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب • وياقوم ما لى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار • تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار • لا جرم أنما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخــرة وأن مردنا الى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار • فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد »(٢٩) •

لقد ســلط الله على فرعون وقومه فى هذه الفترة أنواع الابلاء فأخذهم

---

(٢٩) غافر : ٢٨ ـ ٤٤

بالسـنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون ويذكرون ، كمـا ارسـل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضـفادع والدم آيـات مفصـلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ٠

وحين وقع عليهم الرجز ـ وهو العذاب الشديد ـ طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشفه عنهم ووعدوه ـ ان فعل ـ أن يؤمنوا له ويرسلوا معه بنى اسرائيل ٠ وفعل موسى ، وكشف الله عنهم العذاب ٠ وبدلا من ان يوفوا بعهودهم نكثوا بها وظلـوا على ولائهم لفرعون الذى استخفهم بمعسول القول ٠ فاستحقوا العقاب والهلاك شأنهم فى ذلك شـأن كل الطغاة والظالمين ٠ ممن صـدوا دعوة التوحيد التى جاء بها رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ٠

لقد دعا عليهم موسى عليه السلام بقوله : « **ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا فى الحيـاة الدنيا ربنـا ليضلوا عن سبيلك ، ربنـا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العـذاب الأليم ٠ قال قد اجيبت دعوتكما فاستقيمـا ولا تتبعان سـبيل الـذين لا يعلمون** » (٣٠) ٠

اما كيف خرج موسى ببنى اسرائيل من مصر ؟ وكيف تم خلاصهم على يديه عليه السلام ؟

فنقول : لقد قضى بنو اسرائيل فى مصر زمنا طويـلا كانوا فيـه هدفا لحملات قاسية من القهر والجبروت ، وشـاء الله ان ينقذهم من كل هذا فأوحى الى موسى ان يخرج بهم من مصر ٠ وها هو القرآن يسجل لنا كيف تم هذا ؟ مصـورا محاولات فرعون وقومه ادراكهم ومنعهم مما عزموا عليه وكيف كانت نتيجة هـذه المحاولات فيقول : « **واوحينا الى موسى ان اسر بعبادى انكم متبعون ٠ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ٠ ان هؤلاء لشرذمة قليلون ٠ وانهم لنا لغائظون ٠ وانا لجميع حاذرون ٠ فأخرجناهم من جنـات وعيون ٠ وكنوز ومقام**

(٣٠) يونس : ٨٨ ، ٨٩

كريم • كذلك وأورثناها بنى اسرائيل • فأتبعوهم مشرقين • فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون • قال كلا ، ان معى ربى سيهدين • فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم • وأزلفنا ثم الآخرين • وأنجينا موسى ومن معه أجمعين • ثم أغرقنا الآخرين » (٣١) •

والعجيب أن فرعون الذى علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا • والذى بلغ به غرور الجاه والسلطان الى الحد الذى ادعى فيه الألوهية مرتين فقال فى أحداهما لقومه « **أنا ربكم الأعلى** »(٣٢) وفى الأخرى « **ما علمت لكم من اله غيرى** »(٣٣) قد صوره القرآن والغرق يدركه فى صورة أظهرته فى حجمه الطبيعى كمخلوق ضعيف لا يملك لنفسه حولا ولا قوة • فحينما أشرف على الغرق ظن أنه ان أعلن الايمان بالله فان ذلك سوف ينجيه من غرقه لذلك قال : « **آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين** » (٣٤) •

لقد وهم فرعون حين ظن أن اعلانه الايمان فى هذه اللحظات سوف ينجيه من الغرق • لأنه ايمان جاء فى غير وقته لذلك قال الله له : « **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين • فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون** »(٣٥) •

وهكذا كانت نهاية الطاغية « **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى • ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى** »(٣٦) •

وسار موسى عليه السلام ببنى اسرائيل بعد أن فلق الله البحر لهم حتى عبروه الى الشاطىء الآخر ، وبينما هم يسيرون مع موسى اذ وجدوا قوما يعكفون على أصنام لهم يعبدونها من دون الله فشعروا بالحنين الى الوثنية التى أشربوها فى مصر ، وبدلا من أن يتعظوا بما حدث لهم من

---

(٣١) الشعراء : ٥٢ – ٦٦
(٣٢) النازعات : ٢٤
(٣٣) القصص : ٣٨
(٣٤) يونس : ٩٠
(٣٥) يونس : ٩١ ، ٩٢
(٣٦) النازعات : ٢٥ ، ٢٦

معجزة انفلاق البحر على يد نبيهم حتى عبروا سالمين فى حين غرق اعداؤهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم الها مثل آلهة هؤلاء ، مما يدل على أن الوثنية المصرية كانت ما تزال عالقة بنفوسهم ، وأن ما فعله المصريون من استعلاء عليهم ، واذلال لهم دفعهم الى تقليدهم فى ديانتهم(٣٧) .

ولست أدرى كيف سولت لهم نفوسهم أن يطلبوا من نبى بعثه الله اليهم هذا المطلب العجيب ، وهو الذى جاء ليستأصل من نفوسهم كل دوافع الشرك ودواعيه ويغرس فيها عقيدة التوحيد لله رب العالمين . الذى فضلهم على العالمين ونجاهم من آل فرعون .

لقد كان موقف موسى من طلبهم هذا موقفا مثيرا الى الحد الذى دفعه الى الرد عليهم فى عنف يناسب قبح مطلبهم فقال لهم : « انكم قوم تجهلون »(٣٨) وكأنى بموسى عليه السلام يريد أن يقول لهم : ان جهلكم مطلق ليس معه أثارة من علم ، فأنتم جاهلون بالتوحيد الذى من أخص خصائصه افراد المعبود سبحانه بالعبادة ، كما انكم جاهلون بوظيفة الرسل والا لما طلبتم ما يتنافى مع مهمتهم .

ثم أخبرهم عليه السلام أن ما عليه هؤلاء من عبادة الأصنام أمر مآله الى الهلاك والبوار . وأبدى عجبه وانكاره الشديد لأن يطلبوا منه ذلك ،

---

(٣٧) يقول فضيلة المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « الدين » عند تعليقه على العصر الفرعونى : « تدل بعض أوراق البردى المحفوظة الآن فى برلين وفى لندن على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الاله الأحد الغيبى الأزلى الذى لا تصوره الرسوم ولا تحصره الحدود . غير أن تلك العقيدة الروحية كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الاله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره فى بعض الكائنات الممتازة من انسان أو حيوان أو جماد فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير فى الملوك ، وقوة الاخصاب النباتى فى النيل ، وقوة الاخصاب الحيوانى فى العجل « أبيس » مستمدة بتلقيح شعاع الشمس مثلا ، وأن هذه الكائنات الخاصة أهل للتقديس والعبادة بفضل تلك الصلة السرية بالاله الأعلى » .

(٣٨) الأعراف : ١٣٨

وقد شاهدوا قريبا من دلائل القدرة الباهرة فى فلق البحر ، ودلالة ذلك على عناية الله بهم وعظيم نعمته عليهم حين نجاهم مما كانوا يعانونه من ظلم آل فرعون وجورهم ٠

يصور القرآن هــذا كله فى قوله تعالى : « **وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون ٠ ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ٠ قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين ٠ واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون ابناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** »(٣٩) ٠

* * *

---

(٣٩) الأعراف : ١٣٨ ــ ١٤١

ابتداء التشريع لموسى عليه السلام

لقد وعد الله موسى أن يعطيه كتابا يشتمل على كل ما يحتاج اليه بنو اسرائيل فى أمور دينهم ومعاملاتهم ، ولما حان وقت ابتداء التشريع الموسوى انجز سبحانه وعده لنبيه عليه السلام فأعطاه التوراة هدى لبنى اسرائيل . وكان قد أمره أن يصوم ثلاثين يوما يعطيه التوراة عند انقضائها . ويقال ان موسى عليه السلام استاك ـ أى استعمل السواك ـ فى آخر يوم منها ، لأنه كره أن يناجى ربه عز وجل وفمه متغـــير . ثم أمره الله تعالى ان يصوم عشرة ايام أخرى فتم ميقات ربه اربعين ليلة . وفى هـذا يقول الله تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »(١) .

وكما هو واضح من خلال هذا النص القرآنى استخلف موسى اخاه هارون على بنى اسرائيل بعـد ان أوصاه بالاصلاح وعدم اتباع سـبيل المفسدين ، وجاء عليه السلام للميقات ، وسمع كلام الرب سبحانه ، ولكن نفسه الكريمة اشتاقت لرؤية ربه جل وعلا فطلب من الله أن يمنحه من القدرة ما يجعله يتمكن من النظر اليه ويتحمل تجليه .

وجاءه الجواب الالهى بما يفيد استحالة وقوع ذلك فى هذه النشأة وفى هذا يقول الله تعالى : **« ولمـا جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارنى انظر اليك ، قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى »**(٢) والمعنى ـ والله اعلم ـ انه اذا أطاق الجبل ذلك وثبت عندما اتجلى فأنت تطيق ذلك .

وعندما تجلى الله للجبل صار كثيبا مهيلا وخر موسى عليه السلام

---

(١) الأعراف : ١٤٢ (٢) الأعراف : ١٤٣

مغشيا عليه من هول ما شاهد ، فلما افاق من غشيته انطلق لسانه بهذه الكلمات التى نهجت بالتسبيح والاستغفار ، واعلان الايمان بعظمة الله واحتجابه فى هذه الدنيا عن الأبصار .

وفى هذا يقول الله تعالى : « **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين** »(٣) .

هذا .. وأود أن اشير الى أن المعتزلة قد اتخذوا من هذا النص دليلا على امتناع رؤية الله مطلقا ، مع أن النص لا يفيد ما ذهبوا اليه فان الله سبحانه لم يقل لموسى : انى لا يمكن رؤيتى . كما أنه علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى وهو أمر ممكن فى ذاته .

ولو كانت الرؤية ممتنعة فى ذاتها لما طلبها موسى عليه السلام ، وهو اعلم بما يجب لله وما يستحيل وما يجوز .

وقوله تعالى : « **لا تدركه الأبصار** »(٤) لا يدل على امتناع الرؤية بل يستلزم اثباتها ، لأن نفى الادراك نفى لرؤية خاصة وهى الرؤية مع الاحاطة ، وهو يفيد وقوع مطلق الرؤية فكأنه قال : ان الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية ، كما أن العقول تعرفه ولكنها لا تحيط به علما .

وقد ورد من الآيات والأحاديث فى اثبات الرؤية فى الآخرة ما لا يبقى معه شك فى وقوعها قال تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة** »(٥) ولقد صح عنه صلى الله عليه وسلم انه فسر الزيادة فى قوله تعالى : « **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** »(٦) بأنها النظر الى وجه الله تعالى وفى الصحيح عنه ﷺ انه قال : « انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليس دونه سحاب لا تضامون فى رؤيته » .

ويقول المفسرون لقوله تعالى : « **كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** »(٧) : أنه تعالى لما حجب الكفار عن رؤيته لسخطه عليهم دل على ان المؤمنين يرونه برضاه عنهم .

---

(٣) الأعراف : ١٤٣ (٤) الأنعام : ١٠٣
(٥) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ (٦) يونس : ٢٦
(٧) المطففين : ١٥

ومهما يكن من الأمر فقد اصطفى الله موسى عليه السلام على الناس فى هذا الموقف العظيم برسالاته وبكلامه . ففى هذه المقابلة قال الله له :

« ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين »(٨) .

وقبل أن تنتهى المقابلة اخبر الله موسى بما وقع فى قومه من الفتنة واضلال السامرى لهم بالعجل الذى صاغه لهم من حليهم . فقال :

«واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، الم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين »(٩) .

وفى سورة أخرى من سور القرآن الكريم يقول فى هذا الشأن أيضا :

« وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى . قال فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامرى »(١٠) الى أن قال : **« قال فما خطبك ياسامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى »(١١) .**

وليس من شك فى أن هذه النصوص القرآنية تخبرنا عن تلك النكسة التى أصابت شعب اسرائيل بعودتهم الى الشرك والوثنية التى ألفوها

---

(٨) الأعراف : ١٤٤ ، ١٤٥
(٩) الأعراف : ١٤٨ ــ ١٥١
(١٠) طه : ٨٣ ــ ٨٥
(١١) طه : ٩٥ ، ٩٦

عند اقامتهم بمصر . فالآيات تصور لنا انه بعد ان خرج موسى عليه السلام لميقات ربه مستخلفا أخاه هارون عليه السلام على قومه ـ وكان هارون حليما لينا ـ اغتنم القوم هذه الفرصة فاعطوا حليهم التى كانوا قد استعاروها من المصريين للسامرى فصاغ لهم منها عجلا جسدا على نحو خاص بحيث اذا مر الهواء منه صوت كصوت العجل ، ويقال انه القى عليه حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل عليه السلام فصار عجلا حيا له خوار ثم قال لهم : هذا الهكم واله موسى ، فنسى فاستخف القوم فاطاعوه وعبدوا العجل ، فقام هارون عليه السلام واخذ ينصحهم ويحذرهم عاقبة شركهم ويقول لهم : « **ياقوم انما فتنتم به ، وان ربكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى** »(١٢) .

لقد بلغ القوم من الجهل والسفاهة بفعلهم هذا حدا منقطع النظير ، فالعجل قد صاغه السامرى امامهم من الحلى التى كانت لديهم ، فلو كان عندهم ذرة من عقل لما عبدوه ، وهم يرون أنه لا يكلمهم ولا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

ويعود نبى الله موسى ويرى ما صنعه القوم فيحزن على ذلك العمل حزنا عميقا ، ويأسف على اضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه الذين أعماهم الفهم بالوثنية فى مصر عن ادراك الحقيقة . وقد راينا كيف أنهم حينما عبروا البحر بتلك الصورة الخارقة لم يلبثوا أن قالوا لموسى حين مروا على قوم يعكفون على اصنام لهم « **اجعل لنا الها كما لهم آلهة** »(١٣) .



---

(١٢) طه : ٩٠ ، ٩١

(١٣) الأعراف : ١٣٨

عقيدة التوحيد جاءت بها التوراة

ينبغى أن نشير الى ان ما نزل على انبياء الله قبل التوراة لم يكن اكثر من صحف تشـتمل على بعض الوصايا والمواعظ ، وذلك كصحف ابراهيم ، وما انزل على اسحاق ويعقوب .

اما التوراة فهى اول كتاب سماوى نزل متضمنا لشريعة ذات بناء متكامل . ولا شك ان القرآن قد ذكر التوراة فى اكثر من موضع ، ووصفها بانها هدى ونور وذكر وتمام على الذى احسن ، وتفصيل لكل شىء ، كما أبان القـرآن ان الله امر بنى اسرائيل ان يأخذوا بأحسـنها ، وان يأخذوها بقـوة ، وأن يقيموا احكامها والا يشـتروا بها ثمنا قليـلا ، والا يحرفوا كلمها عن مواضعه ، الى غير ذلك مما جاء به القرآن فى شأنها وفى شأن من نزلت عليهم .

ولعل الذى يعنينا من أمر التوراة فى هذا المجال ما جاء فيها من الدعوة الى التوحيد الذى هو اساس كل شريعة وجوهرها . والحق أن التوراة قد ركزت على ابراز هذه الناحية حيث جاءت بتفاصيل العبادة التى لا تنبغى الا لله ، وحذرت من كل صور الوثنية والشرك بالله .

فقد ورد فى سفر الخروج « أنا الرب الهك الذى اخرجك من أرض مصر أرض العبودية » .

كما ورد فى سفر التثنية « فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ، لأن الرب الهكم هو اله الآلهة العظيم الجبار المهيب . الرب الهك تتقى ، واياه تعبد ، وبه تلتصق وباسمه تحلف . وهو اله واحد لا شريك له . الرب الهنا رب واحد . لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم ، لأن الرب الهكم اله غيور فى وسطكم » .

وجاء فى الوصية الثانية من الوصايا العشر التى كتبت على الألواح الحجرية المنزلة على موسى عليه السلام والتى هى فى الاصحاح العشرين

من سفر الخروج « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل ، وما فى المـاء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن لأنى أنا الرب الهك غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى واصنع احسانا الى الوف من محبى وحافظى وصاياى » .

ويتحدث سفر التثنية مرة أخرى فى هذا المجال فيقول : « لا تنصب لنفسك سارية من شـجرة ما بجانب مذبح الرب الهك الذى نصبه لك ولا تقم لك نصبا الشىء الذى يبغضه الرب الهك ، فانكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب فى حراويب من وسط النار لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة مثال ماشية ذكر أو أنثى شبه بهيمة مما على الأرض ، شـبه طير ما ذى جناح مما يطير فى السماء ، شـبه دبيب مما على الأرض ، شـبه سمك مما فى المـاء تحت الأرض » .

وأما سفر اللاويين فقد جاء فيه « لا تلتفتوا الى الأوثان وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم » .

ولم تقتصر هذه الأسفار على النهى عن عبادة الأوثان ، بل تعدتها الى النهى عن عبادة النجوم والأجرام العلوية « لا ترفع عينيك الى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التى قسمها الرب الهك لجميع الشعوب التى تحت كل السماء ، فتغتر وتسجد لها وتعبدها » .
لقد أمروا أن يعاملوا بالشدة جميع الأمم التى تدين بعبادة الأوثان :

ففى سفر التثنية : « فانك تحرمهم لا تقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم ، بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك ، لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى ، تهدمون مذابحهم ، وتكسرون أصنامهم وتقطعون سواريهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار ، وتماثيل آلهتهم تحرقون بالنار ، لا تشته فضة ولا ذهبا مما عليها لتأخذ لك لئلا تصاد به لأنه رجس عند الرب الهك » وبنفس القسوة التى أمروا بها على الأمم الوثنية أمروا بمثل ذلك فى حق من يشرك منهم .

فقد امر موسى عليه السلام بنى لاوى رهطه بقتل عبدة العجل حين عبد العجل فى غيبته . وفى هذا يقول سفر الخروج : « هكذا قال الرب اله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب الى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ، ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل – وفى رواية : ثلاثة وعشرون الف رجل – وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بأبيه وأخيه فيعطيكم اليوم بركة » .

وجاء فى سفر التثنية « والرجل أو المراة الذى يذهب ويعبد آلهة اخرى ويسجد لها أو للشمس أو للقمر أو لكل من جند السماء يخرج ويرجم بالحجارة حتى يموت » .

« والقرية التى تعبد آلهة اخرى يضرب سكانها بحد السيف ويحرم كل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، وتحرق جميع أمتعتها بالنار وتكون تلا الى الأبد لا تبنى بعد ، واذا أغرى أحد بالشرك يقتل ولو كان المغرى أخاك ابن أبيك أو ابنك أو بنتك .. » .

وما نقلت هذه الأقوال وسقتها فى هذا الشأن الا لأدلل على ان التوراة قد حفلت بالدعوة الى توحيد الله وافراده بالعبادة دون سواه . ونبذ ما كانوا يعبدونه من آلهة مزعومة لا دليل عليها وليس ادل على ذلك مما سبقت الاشارة اليه من أن موسى قد أمر ان يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده حتى قيل ان من قتل فى هذا اليوم كان نحوا من سبعين الفا .

* * *

اليهود يحرفون التوراة بعد موسى

انزل الله سبحانه التوراة على موسى بشريعة اساسية ، وأمر بنى اسرائيل ان يحافظوا عليها ، ويأخذوا بأحسنها ، ويلتزموا بما فيها من تكاليف ، والا يحاولوا التخلص منها او الزيغ عنها بالتأويل والتحريف . ومع ما عليه التوراة من تمام وكفاية لهداية هذا الشعب ، الا ان الله سبحانه أرسل فيهم – بعد موسى عليه السلام – رسلا وأنبياء كثيرين ليعمل

كل منهم على احياء شريعة التوراة ، ومراقبة تنفيذ احكامها والحكم بمقتضى نصوصها « **انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** »(١) ٠

وعلى الرغم من كل هـذا فان القوم لم يوفوا بعهودهم ، وملأت المخالفات التى ارتكبوها صفحات تاريخهم مما أفاض القرآن فى ذكره ، بل ان التوحيد نفسه ـ وهو أصل ديانتهم ـ لم يسلم من التأثر بما وقع منهم من أنواع الانحراف فى هذه الديانة التى جاءهم بها موسى عليه السلام ٠

وها هو القرآن الكريم يحكى قولهم «**وقالت اليهود عزير ابن الله**»(٢) وهذا القول منهم ينبؤنا عن اهم ما أصاب التوحيد من هـذا الانحراف حيث ادعوا لله ولدا ٠

ولعمرى ان هذا منهم لحماقة ساذجة ، وليس من شك فى أن الشبهة التى دفعتهم الى هذه الحماقة ما رواه ابن كثير عن السدى وغيره « من ان العمالقة لـما غلبت على بنى اسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم ، بقى العـزير يبكى على بنى اسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه ، فبينما هو ذات يوم اذ مر على جبانة واذا امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : وامطعماه واكاسياه ، فقال لها : ويحك ٠ من كان يطعمك ويسقيك قبل هذا ؟ قالت : الله ، قال : فان الله حى لا يموت ٠ قالت : ياعزير : فمن كان يعلم العلماء قبل بنى اسرائيل ؟ قال : الله ٠ قالت : فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به ثم قيل له : اذهب الى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فانك ستلقى هنـاك شيخا فما أطعمك فكله ، فذهب ففعل ما أمر به فاذا الشيخ فقال له : افتح فمك ، ففتح فمـه فالقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات ، فرجع عزير وهو من أعلم النـاس بالتوراة ، فقال : يابنى اسرائيل ، قد جئتكم بالتوراة فقالوا : ياعزير ، ما كنت كذابا ٠ فعمد فربط على أصبع من أصابعه

(١) المائدة : ٤٤ (٢) التوبة : ٣٠

قلما وكتب التوراة باصبعه كلها ، فلما تراجع النـاس من عدوهم ، ورجع العلمـاء اخبروا بشأن عزير ، فاستخرجوا النسـخ التى كانوا أودعوها الجبال وقابلوه بها ، فوجدوا ما جاء بها صحيحا ، فقال بعض جهلتهم « انما صنع هذا لأنه ابن الله » .

وليس ذلك فحسب . بل ان التوراة الموجودة الآن فيها نزوع شديد الى التجسيم والتشبيه مما يدفع كل عاقل الى الاعتقاد بأنه مما حرفه اليهود من كتابهم . اذ لا يمكن ان تكون هذه الأمور موجودة فى التوراة الأصلية التى انزلها الله على موسى . والتى دعت الى التوحيد ، وامرت باستئصال أسباب الشرك الظاهرة والخفية ، وحرمت التصوير والنحت واتخاذ السارية فى المعبد ... الخ .

وها هو القرآن يحكى عنهم ما قالوه فى التشبيه ، ووصفهم الرب جل وعلا بصفات النقص والسوء وما الى ذلك مما لا يليق بذاته تعالى وذلك كقولهم : « **يد الله مغلولة** »(٣) وقولهم : « **ان الله فقير ونحن اغنياء** »(٤) وقولهم : « **نحن أبناء الله وأحباؤه** »(٥) وما سطروه فى كتبهم المحرفة من أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت الى غير ذلك مما ذكر عنهم فى هذا الشان .

يقول الشهرستانى فى كتـابه « الملل والنحل » تخريج المرحـوم الدكتور محمد بن فتح الله بدران : « وقد أجمعت اليهود عن اخرهم على ان الله تعالى لمـا فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيا على قفاه واضعا احدى رجليه على الأخرى »(٦) وهذا قليل من كثير مما سطروه من تحريف ينزع الى التجسيم والتشبيه مما يدل على طبعهم المـادى الذى لا يفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق .

***

---

(٣) المـائدة : ٦٤ (٤) آل عمران : ١٨١

(٥) المـائدة : ١٨

(٦) الملل والنحل ، للشهرستانى ، تحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد بن فتح الله بدران . الجزء الأول ص ٣٠٠

الفصل الثاني عشر

من أنبياء بنى اسرائيل داوود وسليمان

كان داوود وسليمان عليهما السلام من أنبياء بنى اسرائيل وقد ورد ذكرهما فى كثير من سور القرآن الكريم ٠

فقد تناولت سورة الأنبياء والنمل وسبأ و (ص) قصتهما بشىء من التفصيل ، ونرى القرآن يذكرهما معا أحيانا ، كما فى سورة النساء والأنعام على أنهما من الأنبياء الذين أوحى الله اليهم وأنهما من نسل ابراهيم عليه السلام ٠

ففى سورة النساء يقول الله تعالى : « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا ٠ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما** »(١) ٠

وفى سورة الأنعام يقول تعالى : « **ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين** »(٢) ٠

واحيانا يفرد القرآن احدهما عن الآخر كما فى سورة البقرة حيث يحكى أن داوود عليه السلام كان فى الجيش الذى خرج به طالوت لقتال العماليق ، وأنه قتل جالوت ، وأن الله آتاه من أجل ذلك الكتاب والحكمة وعلمه مما يشاء « **فهزموهم باذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء** »(٣) ٠

---

(١) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤ (٢) الأنعام : ٨٤
(٣) البقرة : ٢٥١

ومهما يكن من الأمر فان الذى يتعلق من قصتهما بموضوعنا هو انهما عليهما السلام قد اسسا مملكة للتوحيد وسط عالم مشترك وأن الملك والنبوة لم يجتمعا لأحد قبلهما فى بنى اسرائيل .

فداوود ـ كما سبق ـ كان فى جيش طالوت ، وهو الذى قتل ملك العمالقة جالوت ، فورثه الله ملكه وقواه له وفى هذا يقول الله تعالى :

« **واذكر عبدنا داوود ذا الأيد ، انه أواب . انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق . والطير محشورة ، كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** »(٤) .

اما ولد داوود وهو سليمان عليـه السلام فيقول الله تعالى عنه :
« **قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، انك انت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هـذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** »(٥) .

لقد كان ملك سليمان عظيما الى حد أن كانت الملوك من حوله تخشى بأسه وتطلب وده .

وليس أدل على ذلك مما حكاه القرآن فى سورة النمل عما دار بين سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ .

فقد أخبر الهدهد سليمان أن بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، فأرسل سليمان اليها كتابا يدعوها فيه الى الدخول فى الاسلام الذى هو توحيد الله والعمل بشريعته ، وما أن وصلها الكتاب حتى عرضته على أهل الرأى فى مملكتها ، ولكن أهل الرأى فوضوا الأمر اليها ، فرأت بلقيس أن ترسل الهدايا الى سليمان عله يعدل عما أراده منها من الدخول فى طاعته ، وفعلت وأرسلت الهدايا لسليمان ، ولكنه عليه السلام رد هداياها قائلا :

---

(٤) سورة ص : ١٧ ـ ٢٠ (٥) سورة ص : ٣٥ ـ ٣٩

« أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون • ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون »(٦) •

ثم رأى سليمان عليه السلام أن ينقل عرشها اليه قبل أن تأتيه هى وقومها مسلمة مذعنة ، وأحضر العرش اليه فلما رآه مستقرا عنده قال : **« هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم »**(٧) •

وحين جاءت بلقيس الى سليمان عرض عليها عرشها منكرا وقال لها ، اهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وقال لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فقيل لها انه صرح ممرد من قوارير ، فلما رأت عظمة ملك سليمان وما آتاه الله من الغنى وتسخير الجن له قالت : **« رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »**(٨)•

* * *

---

(٦) النمل : ٣٦ ، ٣٧ (٧) النمل : ٤٠
(٨) النمل : ٤٤

اليهود يفترون على أنبيائهم

لعل أهم ما يلفت النظر فى أسفار العهد القديم تلك الاتهامات التى يلصقها اليهود بالأنبياء ، فقد ألحقوا بهم أبشع الجرائم ونسبوا اليهم أخس الأفعال واحقرها • مما يتنافى وعصمتهم عليهم السلام •

وليس هذا بغريب عليهم ، فقد عرفوا ـ على امتداد تاريخهم الطويل ـ بالطعن على أنبيائهم ، والاستهانة بمكانهم وشرفهم • فها هو موسى عليه السلام ، الذى خلصهم من العبودية وعبر بهم البحر ، وجاءهم بالتوراة ليسيروا على هديها ، لم ينج من اذاهم • كما لم ينج من ظلمهم واسرافهم اى نبى جاء بعده عليه السلام • ولقد عبر القرآن عن طبيعة هؤلاء القوم فأخبرنا انهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى انفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون •

● داوود وافتراءات اليهود :

لقد الحق اليهود بداوود عليه السلام ابشع الاتهامات ، ولقى منهم اشد العنت ، ذلك انهم رموه بأنه احب زوجة قائده « أوريا » ، وانه ـ بدافع من هذا الحب ـ أرسله مرارا على رأس الجيش عساه يقتل فيحظى بزوجته •

ومما تجدر الاشارة اليه : ان هذه الفرية اليهودية قد اوقعت كثيرا من المفسرين فى الخطأ وذلك حين انساقوا وراءها فحملوا عليها قوله تعالى : « **وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب • اذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط • ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب ••** » الى قوله : « **وحسن مآب** »(١) •

---

(١) سورة ص : ٢١ ـ ٢٥

لقد ذهب هؤلاء المفسرون فى تفسيرهم للخصمين اللذين تسورا المحراب على داوود ، الى انهما ملكين بعثهما الله اليه لينبهانه الى خطئه فى محاولة ضم زوجة أوريا اليه مع أن له اكثر من تسع وتسعين امرأة . ولست ادرى كيف صنع هؤلاء المفسرون هذا الصنيع ، وكان عليهم أن يتنبهوا الى ما فى هذا من الحاق تهمة باطلة برسول كريم .

***

● **سليمان وافتراءات اليهود :**

ونحن لو قارنا ما صنعه اليهود بسليمان عليه السلام ، بما صنعوه بداوود من اتهامات لوجدناه اخطر بكثير ، وذلك انهم انكروا رسالته واتهموه بالسحر ، وقالوا انه سخر الجن والانس بواسطة السحر .

وهاهو القرآن الكريم يعلن براءة سليمان من هذا الاتهام فيقول : **« واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر .. »** الآية(٢) .

وكذلك رموه بأنه حين علم بأمر ملك تحصن فى جزيرة خرج اليه بالريح وقتله وأخذ ابنته وكانت غاية فى الجمال فأحبها ، وأمر الجن أن يعملوا لها تمثالا على صورة ابيها الذى كان دمعها لا يجف حزنا على فراقه ، وصنعوا لها التمثال فكسته كسوة نفيسة ، وأخذت تسجد له مع ولائدها فى غدوها ورواحها فسقط الخاتم من يد سليمان عليه السلام لعصيانه باتخاذ الصنم الذى يسجد له فى بيته ، فقال له آصف : انك مفتون بذنبك ، فتب الى الله .

فخرج الى فلاة وقعد على الرماد تائبا الى الله سبحانه وتعالى ، ويفسرون بهذه الفرية قوله تعالى :« **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب »(٣)** .

ولاشك أن هذه فرية خبيثة يرويها الحشوية . وفى ردها يقول

---

(٢) البقرة : ١٠٢ (٣) سورة ص : ٣٤

صاحب « المواقف » وشارحها : « والجواب : ان هذه الحكاية الخبيثة التى يرويها الحشوية كتاب الله مبرأ عنها ، فانه قال النبى عليه السلام فى تفسير هذا الكلام « قال سليمان : أطوف الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة منهن ولدا يقاتل فى سبيل الله ، ولم يقل : ان شاء الله ، فلم تحمل من تلك المائة الا واحدة ، فولدت نصف غلام ، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه بين يديه ، ولو انه قال : ان شاء الله كان كما قال ، فالابتلاء المذكور فى الآية انما كان لترك الاستثناء لا لمعصية » .

وقيل : كان ابتلاؤه بالمرض ، فانه مرض حتى صار مشرفا على الموت لا يقدر على حركة كجسد بلا روح . وقيل : ولد له ولد فقالت الشياطين : ان عاش ولده لم ننفك عن السخرة ، فعزمت على قتله ، فعلم سليمان ذلك فخاف على ولده من الشياطين ان تهلكه ، فأمر السحاب أن يحمله وأمر الريح أن تحمل اليه غذاءه فمات الولد فى السحاب ، فألقى على كرسيه ، فتنبه سليمان الى خطئه حيث لم يتوكل على ربه » .

هكذا نرى كم نال اليهود من انبياء الله عليهم السلام وكم الصقوا بهم من الدنايا والمعاصى ، دون ان يراعوا مكانتهم ومنزلتهم ، ولقد حفلت كتب العهد القديم بكل ما يندى له الجبين من افتراءات على رسل الله ولم يقتصر الأمر على موسى وداوود وسليمان فحسب بل ان من يطلع على اسفارهم يجدهم وقد نالوا من ابراهيم ولوط وأولادهما كما نالوا من غيرهما من الأنبياء بصورة تقشعر منها الأبدان ويكفى ان نضرب مثالا لافتراءات اليهود ـ زيادة على ما سبق ـ وهو ما سطروه فى سفر التكوين من افتراءات على لوط وابنتيه .

لقد قالوا ان لوطا عقب خروجه من قرية « سدوم » ـ التى اهلكت ـ دخل فى مغارة من ابنتيه اللتين كان قد قدمهما الى رجال سدوم ، ولما كان لوط قد كبر وشاخ ، وليس فى الأرض رجل يدخل على ابنتيه ، كعادة كل الأرض ، لذلك فقد ارادت البنتان ان ينجبا من ابيهما نسلا فاقترحت البنت الكبرى على اختها الصغرى ان يسقيا اباهما خمرا ليضاجعاه ـ الواحدة تلو الأخرى ـ وبدات الكبرى فنامت مع ابيها

فى اول ليلة ونامت الاخرى معه فى الليلة الثانية ، وحملتا من ابيهما .

وفى هذا يقول « سفر التكوين » : « وصعد لوط من صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة : ابونا قد شاخ وليس فى الارض رجل ليدخل علينا كعادة كل الارض ، هلم نسقى ابانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من ابينا نسلا ، فسقتا اباهما خمرا فى تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع ابيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث فى الغد ان البكر قالت للصغيرة : انى قد اضطجعت البارحة مع ابى ، نسقيه خمرا الليلة ايضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من ابينا نسلا فسقتا اباهما خمرا فى تلك الليلة ايضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من ابيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب ، وهو جد المؤابيين الى اليوم ، والصغيرة ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى وهو ابو بنى عمون الى اليوم »(٤) .

وليس من شك فى ان ساحة النبوة بريئة من هذا النسج الخبيث وان دل هذا على شىء فانما يدل على ان التوراة التى تنطق بهذا الهراء ليست هى التوراة التى انزلها الله على موسى عليه السلام وانما هى اساطير كتبها كتاب العهد القديم ليشوهوا بها صورة الانبياء عليهم السلام . كما هى عادة اليهود عبر تاريخهم الطويل .

* * *

---

(٤) سفر التكوين : ٩ : ٣ ـ ٣٨ الكتاب المقدس . دار الكتاب المقدس .

داوود وسليمان يدعوان الى التوحيد

نعود فنتابع الكلام عن داوود وسليمان عليهما السلام **فنقول** : لقد دعا كل منهما بنى اسرائيل الى التوحيد ، فقد جاء فى اخبار الأيام الأول من كتاب العهد القديم : ان داوود عليه السلام خطب بنى اسرائيل فى يوم اصعاد التابوت الى مكانه الذى اعده له فقال ما خلاصته : « احمدوا الرب . ادعوا باسمه . اخبروا فى الشعوب بأعماله : غنوا له . ترنموا له . تحادثوا بكل عجائبه . افتخروا باسم قدسه . تفرح قلوب الذين يلتمسون الرب . اطلبوا الرب وعزه . التمسوا وجهه دائما يا ذرية اسرائيل عبده ، وبنى يعقوب مختاريه هو الرب الهنا فى كل الأرض أحكامه . حدثوا فى الأمم بمجده ، وفى كل الشعوب بعجائبه ، لأن الرب عظيم ومفتخر جدا وهو مرهوب فوق جميع الآلهة ، لأن كل آلهة الأمم أصنام ، وأما الرب فقد صنع السموات » .

وفى مكان آخر يقول : « يارب ليس مثلك ولا اله غيرك حسب كل ما سمعناه بآذاننا » .

وها هو عليه السلام يقول فى وصيته لولده سليمان عليه السلام : « يا بنى قد كان فى قلبى أن أبنى بيتا لاسم الرب الهى فكان الى كلام الرب قائلا : قد سفكت دما كثيرا ، وعملت حروبا عظيمة ، فلا تبنى بيتا لاسمى ، لأنك سفكت دماءا كثيرة على الأرض امامى هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة واريحه من جميع أعدائه حواليه ، لأن اسمه يكون سليمان ، فأجعل سلاما وسكينة فى اسرائيل فى أيامه ، هو يبنى بيتا لاسمى ، والآن يا بنى ليكن الرب معك فتفلح وتبنى بيت الرب الهك كما تكلم عنك ، انما يعطيك الرب فطنة وفهما ، ويوصيك باسرائيل

لحفظ شريعة الرب الهك ، حينئذ تفلح اذا تحفظت لعمل الفرائض والأحكام التى امر بها الرب موسى لأجل اسرائيل .

وانت ياسليمان اننى اعرف اله ابيك ، واعبده بقلب كامل ونفس راغبة لأن الرب يفحص جميع القلوب ، ويفهم كل تصورات الأفكار ، فاذا طلبته يوجد معك ، واذا تركته يرفضك الى الأبد » .

هذه مقتطفات من كلام داوود عليه السلام فى التوحيد .

أما ابنه سليمان عليه السلام ، فبعد أن نفذ وصية ابيه داوود وبنى بيت أورشليم صعد على منبر ووقف تجاه اسرائيل وخطب فيهم فقال ما خلاصته :

« أيها الرب اله اسرائيل ، لا اله مثلك فى السماء والأرض ، حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم ، فالتفت الى صلاة عبدك والى تضرعه أيها الرب الهى ، واسمع الصراخ والصلاة التى يصليها عبدك أمامك ، واسمع تضرعات عبدك وشعبك اسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضوع ، واسمع انت من موضع سكناك فى السماء ، واذا سمعت فاغفر ان اخطأ احد الى صاحبه ووضع عليه حلف ليحلفه وجاء الحالف امام مذبحك فى هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واقض بين عبيدك اذ تعاقب المذنب فتجعل طريقه على راسه وتبر البار اذ تعطيه حسب بره . وان انكسر شعبك اسرائيل امام العدو لكونهم اخطأوا اليك ثم رجعوا واعترفوا باسمك ، وصلوا وتضرعوا امامك ، نحو هذا البيت ، فاسمع انت من السماء واغفر خطيئة شعبك اسرائيل وارجعهم الى الأرض التى أعطيتها لهم ولآبائهم » .

هكذا نرى داوود وسليمان ينطقان بالتوحيد ويدعوان اليه شأنهم فى هذا شأن انبياء الله جميعا .

ولننتقل بالكلام الى آخر انبياء بنى اسرائيل الذى مثل آخر طور من اطوار الديانة الاسرائيلية وهو : عيسى عليه السلام .

* * *

الفصل الثالث عشر

آخر انبياء بنى اسرائيل : عيسى عليه السلام

لعل القارىء ليس بحاجة الى معرفة ان الله سبحانه وتعالى قد جعل فى ولادة عيسى وامه ، وفى نشأتهما آية ٠ فى الوقت الذى فقد فيه الشعب الاسرائيلى الروح الدينى الصحيح ، حيث اقتصر على اشكال العبادة من طقوس ومراسيم ، وعكف على المادة ، واقترف ما اشار اليه القرآن الكريم من ابشع الجرائم مما يشير اليه قوله تعالى :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ٠ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل »(١) ٠

وفى شأن جرائمهم وكفرهم يقول تعالى ايضا « **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا** »(٢) ٠

انه شعب قست قلوب افراده فاصبحت كالحجارة او اشد قسوة وجمدت فيه العواطف ، واصبح فى حاجة الى آيات تحرك فيه المعانى الروحية التى نسيها ٠

لذلك فقد أجرى الله له من الآيات ما جاء متتابعا ٠ وتبدو هذه الآيات فى ولادة مريم ويحيى وعيسى عليهم السلام ٠

اما مريم عليها السلام ، فكانت امها عقيما لا تلد ، فنذرت ان رزقها الله بولد لتهبنه لخدمة بيت المقدس فلما وضعتها اسفت لكونها

---

(١) النساء : ١٦٠ ، ١٦١ ٠ (٢) النساء : ١٥٥ ٠

انثى لا تصلح للخدمة وقالت ـ وهى تعتذر الى الله « **رب انى وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى ، وانى سميتها مريم وانى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** »(٣) .

ويخبرنا القرآن أن الله قبلها منها وأنبتها نباتا حسنا . وأخذت « حمنة » ابنتها وذهبت بها الى العلماء فى بيت المقدس حيث ألقتها بين أيديهم ، وقالت : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فى كفالتها .

ولكن الله كفلها زكريا عليه السلام ، لأن خالتها كانت تحته وقد جعلها زكريا فى محراب المسجد ، فكان كلما دخل عليها المحراب « **وجد عندها رزقا ، قال يامريم انى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب** »(٤) .

وهذا الذى حدث أطمع زكريا فى أن يرزقه الله الولد ولو فى غير أوانه ، فدعا ربه بهذا الدعاء : « **رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا** »(٥) .

فما فارق زكريا المحراب حتى نادته الملائكة مبشرة له بأن الله وهبه يحيى « **مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين** »(٦) وحين عجب زكريا من هذه البشرى رغم كبره وعقم زوجته ، قيل له « **كذلك الله يفعل ما يشاء** »(٧) .

وطلب عليه السلام آية تدل على حمل امرأته فقيل له : «**آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** »(٨) .

وولد يحيى عليه السلام ، وشب على الطهر والاستقامة ، وكان آية

---

(٣) آل عمران : ٣٦ .
(٤) آل عمران : ٣٧
(٥) مريم : ٤ ـ ٦
(٦) آل عمران : ٣٩
(٧) آل عمران : ٤٠
(٨) مريم : ١٠

فى ورعه وطاعتــه لربه وبره بوالديه ، وآتاه الله العلم والحكمـــة ، ومن عليه بالرســالة ، وهو الذى يسميه الاسرائيليون « يوحنا المعمدان »٠

واما ثالثة الآيات التى اراد الله ان يهز بها ما جمد من عواطف شعب اسرائيل ، ويحرك فيه المعانى الروحية بها فهى : ولادة عيسى عليه الســلام تلك التى جاءت على نمط فريد من نوعه ، والتى لا نجد ـ فيما يتعلق بها ـ اصدق واروع مما سجله القرآن الكريم فى سورة مريم حيث يقول :

« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلهـا مكانا شرقيـا ٠ فاتخذت من دونهم حجابا فارسـلنا اليها روحنـا فتمثل لها بشرا سويا ٠ قالت انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ٠ قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا ٠ قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا ٠ قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان امرا مقضيا ٠ فحملته فانتبذت به مكانا قصـيا ٠ فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ٠ فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ٠ وهزى اليك بجذع النخلة تسـاقط عليك رطبا جنيا ٠ فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر احـدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا ٠ فاتت به قومها تحمله ، قالوا يامريم لقد جئت شـيئا فريا ٠ يا اخت هارون ما كان ابوك امرا سوء وما كانت امك بغيا ٠ فاشارت اليـه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ٠ قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ٠ وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصـلاة والزكاة ما دمت حيـا ٠ وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ٠ والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيـا ٠ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون »(٩) ٠

---

(٩) مريم : ١٦ ـ ٣٤

وهذه النصوص القرآنية ـ بما هى عليه من وضوح ـ تلقى الضوء على ان ولادة عيسى كانت آية تدفع الى الاعتراف بقدرة الله الذى خلقه من غير اب ، ولكن القوم بدلا من أن يفطنوا الى ذلك ، راحوا يتهمون مريم بالزنا ، ولكن الله اتى بدليل البراءة من مصدر الاتهام حيث انطق عيسى وهو ما يزال فى سن لا ينطق فيها اترابه ممن هم فى هذه السن . فتكلم وبرأ أمه مما نسبوه اليها . ثم عاد الى الصمت وعدم الكلام ولم يتكلم بعدها الا فى السن العادية التى يتكلم فيها الأطفال .

***

عيسى عليه السـلام يدعو الى التوحيد

ادعى النصارى بنوة عيسى لله تعالى،وقالوا ان الآلهة ثلاثة،ولا شك فى أنهم فى هذا وذاك ، قد غيروا رسـالة عيسى ، وخالفوا دعوته عليه السـلام ٠ فهو لم يدعهم الا بما كانت الرسـل قبله تدعوا اليه من توحيـد الله عز وجل وافراده بالعبادة ٠

يقول القرآن فى معرض الرد على النصارى : « **ويعلمـه الكتـاب والحكمة والتوراة والانجيل ٠ ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قـد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وابرىء الأكمـه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ٠ ومصدقا لمـا بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حـرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون ٠ ان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم** »(١) ٠

وفى سورة أخرى يقول : « **لقـد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقـد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ٠ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسـن الذين كفروا منهم عـذاب أليـم** »(٢) ٠

ويقول عز من قائل : « **ولمـا جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله واطيعون ٠ ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم** »(٣) ٠

---

(١) آل عمران : ٤٨ ـ ٥١
(٢) المـائدة : ٧٢ ـ ٧٣
(٣) الزخرف : ٦٣ ، ٦٤

وحين يسأل الله عيسى يوم القيامة عما يقوله النصارى من انه أمرهم أن يتخذوه وامه الهين من دون الله ، فيجيب على ذلك البهتان بهذا الجواب المفحم : « **سبحانك ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحـــق ، ان كنت قلته فقـــد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفســـك ، انك أنت علام الغيوب • ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلمـــا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد • ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم** »(٤) •

وعلى هذا فالقرآن يبرىء عيسى مما نسب اليه ، ويعلن فى وضوح أنه عليه السلام ما كان الا واحدا من هؤلاء الرسل الذين بعثهم الله بالدعوة الى التوحيد لله رب العالمين •

***

(٤) المـــائدة : ١١٦ – ١١٨

عقيدة التوحيد فى الأناجيل

عندما نطالع انجيل « برنابا » نجده يصرح بأن عيسى عليه السلام ليس الها ولا ابن اله وما هو الا عبد رسـول ، ومن أجل ذلك نرى النصارى لا يعترفون بهـذا الانجيل ٠ وانما الأناجيـل المعتبرة عنـدهم أربعـة وهى : انجيل متى ويوحنا ومرقس ولوقا ٠

وبرغم ما تنطوى عليه هذه الأناجيل الأربعة من تناقضات حـول الموضوع الواحد ، فاننا نجد فيها بعض الاشارات والعبارات الصريحـة فى الدلالة على التوحيد ٠

ففى الاصحاح الرابع من انجيل « متى » يقول ابليس للمسيح : ان كنت ابن الله فاطرح نفسـك الى اسـفل فانه مكتوب انه يوصى ملائكته بك ، فيقول له المسيح : مكتوب أيضا لا تجرب الرب الهك ٠

وحين أخذه ابليس الى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه جميعها ان خررت وسجدت لى ٠ قال له يسـوع : اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد ٠

وعندما نطالع الاصحاح السـادس نجد المسيح يقول لتلاميـذه : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشـيئتك كما فى السـماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنـا أعطنا اليوم ، واغفر لنـا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضـا للمذنبين الينـا ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير ، لأن لك الملك والقوة والمجـد الى الأبد آمين » ٠

ويقول فى الاصحاح الثانى والعشرين : « افما قراتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب ، ليس الله اله أموات ، بل اله أحياء » ٠

أما انجيل « مرقص » فنجد فى الاصحاح الثانى عشر احد الكتبـة

يســأل يســوع : أية وصية هى أول الكل ؟ فيجيبه بأن أول كل الوصــايا هى : اسمع يا اسرائيل ، الرب الهنا رب واحد وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفســك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هى الوصية الأولى ٠

وفى انجيل « لوقا » عند تعليم المسيح لتلاميذه ما يقولون فى الصلاة نحوا مما سبق فى انجيل متى مع اختلاف طفيف فى التعبير ، وفى الاصحاح الثامن عشر من هذا الانجيل جاء ما نصــه : « وســـأله رئيس قائلا : أيها المعلم الصــالح ، ماذا اعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لمــاذا تدعونى صالحا ، ليس احــد صالحا الا واحد وهو الله » ٠

أما انجيل « يوحنا » فقد جاء فى الاصحاح الخامس منه : « كيف تقدرون ان تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدا بعضكم من بعض والمجد الـــذى من الاله الواحد لستم تطلبونه » ٠

وفى الاصحاح السابع عشر من هذا الانجيل يقول يســوع المســيح : « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحــدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » ٠

هذه بعض نصوص الاناجيل التى تشهد بأن المسيح عليه الســلام قد دعا الى عبادة الله وحده ، ولم يدع أحد الى عبادة نفسه ٠

وأما ما جاء فى هذه الأناجيل كثيرا من قوله مثلا : ابى الذى ارسلنى ، ونحو ذلك ، فان اضافة هذه الأبوة وردت فى هذه الأناجيل ايضا الى اتباعه حيث كان يقول لهم : ابى وأبوكم الذى فى السموات ٠ فلو كان ما يدعيه النصارى من الوهية المسيح مستندا الى قوله « ابى الذى أرسلنى » للزم أن يكون الله عز وجل ابا لغير المسيح ، بناء على ما ورد من اضافة هذه الأبوة الى أتباعه ٠

وعلى ذلك فيجب حمل العبارة على المجاز ، وأن مراده بهذه الأبوة أبوة الرعاية والرحمة ، اضف الى ذلك : انه لو حملت العبــارة على الأبوة الحقيقية ـ كما يزعم النصارى ـ لتناقض هذا مع النصــوص التى نقلناها من الأناجيل الأربعة والتى تشهد بوحدانية الله سبحانه ٠

* * *

آراء بعض اللاهوتيين وعلماء النصارى
عن الوهية المسـيح

نشرت مجلة (Times) الانجليزية فى عددها الصادر فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٧٩ فى صفحة ٤٤ مقالا بعنوان « جدل حديث عن الهية المسيح » ومما جاء فى هذا المقال بعد ترجمته الى العربية :

ان الاعتقاد بأن المسيح عيسى هو اله حقا وبشر حقا ، ظل هـذا الاعتقاد الأساسى للعقيدة الرسمية للكاثوليك لأكثر من خمسة عشر قرنا .

ولكن فى السـنوات العشر الأخيرة ظهرت آراء لبعض اللاهوتيين تتعارض مع هـذا الاعتقاد ، وتتهم الديانة الرسمية بالجمود . وأنها بالغت فى تأكيد الهية عيسى لدرجة أنها سلبته بشريته . ومن هؤلاء العلمـاء اللاهوتيين ما يلى :

فى المـانيا : « هانز كينج » أستاذ اللاهوت الألمـانى فى جامعة « يفوبنج » بالمانيا يقول : ان العقيدة المسيحية كما عبر عنها مجلس « نيس » سنة ٣٨١ م . تحتاج الى فهم وتأويل جديد ، والعقيـدة التى يشير اليها هى التى تقول : « ان عيسى ظل منذ الأزل مولود الأب الها حقيقيا من اله حقيقى مماثل فى حقيقته للأب » . ويرى « كينج » : ان هذا الكلام ينبغى أن يوضع فى عبارات تتناسب مع الجو العقلى لعصرنا .

والعبارة التى يقترحها أن نقول : « ان الله تعالى كان حاضرا وكان يفعل ويتكلم ويتجلى من خلال المسيح » .

ثم يقول : ان العبارات القديمة التى تصف المسيح بأنه كان موجودا منذ الأزل مع الله ، كان مقصودا منها أن تعبر عن دعوة الله تعالى اتى أظهرها بوسـاطة المسيح .

وفى سنة ٤٥١ م . هذب أحد المجالس المسيحية العقيدة السـالفة

الذكر بقولهم : ان المسيح له طبيعتان : الهية وبشرية امتزجتا فى شخص الثالوث بغير تبديل ولا تغيير ٠

ويرى « كينج » تعقيبا على العبارة السابقة ان نقول : « ان عيسى لم يعلن نفســه الابن الأزلى لله ، ولا كان هــذا هو اعتقاد النصــارى الأوائل » ٠

وفى انجلترا : انزعجت الكنيســة الانجليزية فى العام المــاضى(١) عندما أصدر سبعة من علمــاء اللاهوت الجامعيين كتابا قالوا فيـــه : « ان عيسى لم يكن فى الحقيقة الها البتة » ٠

وفى الولايات المتحدة الأمريكية : قال العالم اللاهوتى « الى » رئيس قسم الديانة فى احدى الجامعات الأمريكية ، فى اجتماع لبعض الملحدين : « ان عيسى لم يدع أبدا أنه الله ، ولا زعم انه ابن الله » ٠

واثر هذا التصريح حول « الى » الى قسم آخر من اقسام الجامعة ٠

وفى فرنســا : يقول « جاك بوير » : « انه من غير المعقول أن نقول ان الله جعل نفسه انســانا » ٠

ويقول : « انه تحرر من وثنية عبادة عيسى الذى لم يدع انه الغاية ولا أنه المطلق » ٠

وفى أسبانيا : قال « جوز ريمون » مدير معهد مدريد للدراســات المسيحية : « ان عيسى كان رجلا ، اختاره الله وأرسله » ٠

هكذا تنطق الســنة اللاهوتيين وعلماء النصارى المعاصرين بالحق ، وتشهد بأن عيسى عليه الســلام ليس الها وانما هو بشر اختاره الله وأرسله ليدعو الى عبادة الله الواحد ٠

ومع هذا كله : فان كل عاقل يرى أن النصارى قد ضلوا واختلفوا وغلوا فى شــأن نبيهم ٠ وها هو آخر كتاب سماوى حفظه الله من التحريف

---

(١) يراعى أن المقصود بـ (العام المــاضى) عام ١٩٧٨ م ، لأن المجلة التى ننقل عنها صدرت فى ١٩٧٩ م ٠

والتبديل وهو القرآن الكريم ينبه على هذا الضلال الذى وقعوا فيه فى كثير من آياته :

فقد جاء فى تفسير قوله تعالى « **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** »(٢) حديث مرفوع ، يقول : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » .

ويقول الله سبحانه وتعالى ناهيا لهم عن الغلو واتباع الهوى : « **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا** »(٣) .

ويقول سبحانه : « **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** »(٤) .

على أن من يطلع على العقائد الأساسية عند النصارى كعقيدة التثليث والبنوة ، وعقيدة الصلب والفداء ، يجد ان كل هذه العقائد تجافى العقل مجافاة بينة ، وتتحداه تحديا واضحا لما فيها من الاغراق فى الوهم وجموح فى الخيال وميل شديد الى المغالاة ، ومع كل هذا نجد من يؤمن بها ويتعصب لها ، مع انها لم تقم الا على شبهات واهية .

ان وجود ولد بلا أب ليس خارجا عن نطاق قدرة الله تعالى كما انه لا يوجب مطلقا نسبة هذا الولد الى الله ، فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم ، ووهب اسحاق لابراهيم وهو وسارة شيخان كبيران ، واعطى زكريا الولد على شيخوخة منه وعقم من امرأته ، فأى غرابة اذن فى أن يخلق الله عيسى من أم بلا أب ؟

---

(٢) الفاتحة : ٧ — (٣) النساء : ١٧١

(٤) المائدة : ٧٧

وكما سبق ـ لا يوجب ما ورد فى الأناجيل من لفظ البنوة أن تكون بنـوة حقيقيـة ، وكذلك ما ورد فيها من تلقيب عيسى بأنه روح اللـه أو كلمته لا يقتضى أبدا أن يكون هو الله ، ولا أن يكون جزءا من الله ، فان الروح اسم لمـا به الحياة ، ولا شك أن عيسى كان حياة لمن أرسل اليهم ، جاءهم بما فيه حياة لأرواحهم وقلوبهم ٠

وأما كونه كلمة الله ، فلأنه خلق بالكلمة التى هى قوله تعالى : « كن » دون توسط الأسباب العادية ٠

ولو انصف النصارى لوجدوا لهذه النصوص محامل صحيحة لا تؤدى الى نسبة الزوجة والولد الى الله وهو أمر يحكم العقل باستحالته ٠

وأما فيما يتعلق بعقيدة الصلب والفـداء التى هى أسـاس دينهم فالقرآن الكريم قد أبان أنهم اتبعوا فيها الظن الذى لا يغنى من الحـق شيئا ، ونفى أن يكون عندهم يقين بها ٠ وفى هذا يقول الله تعـالى : **« وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسـول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ٠ بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيمـا » (٥) ٠**

لقد أغرق الخيـال فى حبك قصـة مليئة بالمتناقضات لهذا الفداء ٠ وذلك حين قال النصارى « ان آدم حين عصى الله بالأكل من الشجرة ووقع فى الخطيئة اسـتحق هو وذريته العقوبة ، وظل الرب يفكر فى طريقـة يجمع بها بين رحمته وعدله ، لأنه ان عاقب آدم وذريته كان ذلك منافيـا لرحمته ، وان عفا عنهم كان ذلك منافيا لعدله ، وأخيرا اهتدى الى الحل وهو أن يفدى البشر بنفسه ، فنزل فى بطن أنثى من خلقه ، وظل حبيسا به مدة الحمل ، ثم خرج وعاش دهرا طويلا بين الناس يأكل ويشرب ويلتذ ويتألم ، ثم مكن اعداءه من نفسـه ليقتلوه ابشع قتلة ، ويصلبـوه على الخشبة ، وكل ذلك انما تحمله من أجل أن يفدى خطيئة آدم وذريته » (٦) ٠

---

(٥) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

(٦) انظر كتاب « الجانب الالهى » للأستاذ الدكتور محمد البهى الجزء الأول ص ١٠٦ وانظر كتاب « وحدة الدين » لأبى الفيض ص ١٣٢ ٠

وانى لعلى ثقة من ان كل من يقرأ هذه القصة ولو كان ابسط الناس عقلا لسوف يتملكه الضحك ويستولى عليه العجب من أمر هؤلاء القوم .

ولذلك نرى السيد رشيد رضا رحمه الله فى كتابه « عقيدة الصلب والفداء » يتعجب من أن يقوم دين على خرافة تمرغ الله فى الوحل ، وتسقيه كأس الضراعة والذل ، وتصفه بمنتهى العجز عن العفو عن خطايا خلقه الا اذا قدم نفسه أو ولده قربانا .

كما نرى العلامة ابن القيم فى كتابه « اغاثة اللهفان » يقول عن النصارى : « وهذه الأمة ارتكبت محظورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل ، احدهما : الغلو فى المخلوق حتى جعلوه شريك الخالق وجزءا منه والها آخر معه ، والثانى : تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم » الخ .

ثم يقول - حول مبدأ التغير فى دين المسيح عليه‌السلام حتى لم يبق فى أيدى النصارى منه شىء الآن - ان أمرهم قد استقام على السداد نحو ثلاثمائة سنة ثم أظهر « آريوس » مقالته التى أنكر فيها لاهوت المسيح ، وحكم بانه مخلوق محدث ليس مولودا من الله وانه لا يساويه فى الجوهر وكان يعلل رأيه بقوله : كيف تتفق دعوى وحدة الاله مع جعل عيسى الها ايضا ؟ . فلم ترض مقالته هذه رجال الكنيسة ، فمنعه بطريق الاسكندرية من دخول الكنيسة ولعنه فخرج آريوس الى الامبراطور « قسطنطين » يستعديه على ذلك البطريق وتناظرا بين يديه ، فقال قسطنطين لـ « آريوس » : اشرح مقالتك ، فقال : أقول ان الرب كان اذ لم يكن الابن ، ثم أحدث الابن فكان كلمة له الا أنه محدث ، ثم فوض الأمر الى ذلك الابن ، فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما . ثم ان تلك الكلمة اتخذت بعد من مريم العذراء ومن روح القدس فصار ذلك مسيحا واحدا ، فالمسيح الآن كلمة وجسد الا انهما جميعا مخلوقان .

فقال بطريق الاسكندرية : فأيهما أوجب علينا عندك ؟ عبادة من خلقنا ، أو عبادة من لم يخلقنا ؟

قال آريوس : بل عبادة من خلقنا • قال البطريق : فعبادة الابن الذى خلقنا وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تصير عبادة الأب الخالق كفرا ، وعبادة الابن المخلوق ايمانا(٧) فاستحسن الملك والحاضرون قول البطريق ومن معه ، وأمر الملك أن يلعنوا آريوس وأهل مقالته ، فانتهز البطريق هذه الفرصة وطلب من الملك أن يجمـــع البطارقة والأساقفة للاتفاق على عقيدة واحدة ، فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق حتى اجتمع عنده منهم الفان وثمانية واربعون أسقفا(٨) ، وكانوا مختلفى الآراء ، متباينى الأهواء ، فكثر لغطهم ، ولم يتفق منهم الا (٣١٨) أسقفا على رأى ، وناظروا فيه بقية الأساقفة وظهروا عليهم ، فعقد لهم الملك مجلسا خاصا جلس فى وسطه ، ورفع اليهم خاتمه وسيفه وقضيبه وقال لهم : سلطتكم على المملكة فاصنعوا ما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم ، فباركوا عليه وقلدوه سيفه وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذب عنـه ، ودفعوا اليه الأمانة التى اتفقوا على وضعها ، فلا يكون عندهم نصرانى من لم يقر بها ، ولا يتم له قربان الا بها وهى هذه : « نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شىء صانع ما يرى وما لا يرى ، وبالرب الواحد يسوع ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، اله حق من اله حق من جوهر أبيه ، الذى بيده أتقنت العوالم وخلق كل شىء ، الذى من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس وصار انسانا ، وحمل به ثم ولد من مريم البتول وأولم وأوجع ، وقتل وصلب ودفن وقام فى اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء مرة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد ، روح الحق الذى يخرج من أبيه ، روح محيية وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قدسية جاثلقية ، وبقيامة أبداننا والحياة الدائمة أبد الآبدين » •

وافترقوا على هذه العقيدة وعلى لعن من خالفها •

---

(٧) عن كتاب « الدين الخالص » الجزء الثانى ص ٤٦٣ •

(٨) كان هذا المجمع فى « نيقية » سنة ٣٢٥ م •

ثم تعددت مجامعهم بعد ذلك ، وفى كل مرة يعلنون تمسكهم بهذه العقيدة ، ويزيدون عليها ضلالات ، ويلعنون ويكفرون كل من خرج عليها من أساقفتهم .

ففى عام ٤٥٠ م قرر مؤتمر الكنيسة البيزنطية تحت رعاية الامبراطورة « بولشيريا » المنعقد بمدينة « خلقيدونا » بآسيا الصغرى اعتبار نسطور وجماعته خارجين عن الجماعة المسيحية المؤمنة ، ومستحقين للعنة الرب والمسيح بسبب أنهم انكروا وجود ثلاث ذوات مستقلة ، وقالوا ان هذه الألفاظ : الله والكلمة والروح القدس . ترجع مدلولاتها الى شىء واحد ، ولا تدل على ذوات ثلاث فى واقع الأمر ، بل الله هو الذات الواحدة ، وهو وحده أصل العالم ، وكلمته على معنى علمه ، والروح القدس على معنى القوة المدبرة حالان أو اعتباران لذاته(٩) .

ونخلص من كل ما سبق الى ان جميع المذاهب المسيحية المعروفة الآن مهما اختلفت فى تحديد شخصية المسيح فانها مؤلهة له وليس فيهـــا من يدين بدين الحق الذى يجعل عيسى مجرد رسول من عند الله ليس الها ولا ابن اله بل هو فى معتقدهم الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس ، وكلمة الله المتجسد من مريم العذراء لخلاص العالم(١٠) .

* * *

---

(٩) كتاب « الجانب الالهى » للأستاذ الدكتور محمد البهى . الجزء الأول ص ١٢١

(١٠) عن كتاب « المنجد فى الأدب والعلوم » للويس معلوف ص ٥٧٤

الباب الثانى

عقيدة التوحيد

فى رسالة الاسلام العامة والخاتمة

- ظهور الاسلام قضى على الشرك والفساد
- عقيدة التوحيد ٠

● **تمهيـــد :**

فى الباب الأول تناولنا أشهر الدعاة الى عقيدة التوحيد من خلال عرضنا لتلك الصفوة الممتازة من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وعرفنا أن الهدف الأسمى من بعثة كل منهم كان توحيد الله تعالى وأن كلا منهم جاء ليقول لقومه « **اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** »(١) .

كما عرفنا أن رسالة كل رسول كانت تختص بقومه بحيث لا يكلف بها قوم آخرون . وهذا يعنى أن الرسالات قبل محمد ﷺ كانت خاصـة . أما رسالة محمد ﷺ فهى تختلف عما سبقها من رسالات السـماء فى النقاط التاليـة :

أولا : انها رسالة عامة وعالمية ، بمعنى أنها لا تختص بشعب دون شعب أو بقطر دون قطر ، وانما جاء بها صلوات الله وسلامه عليه للانس والجن جميعـا .

وصدق الله القائل فى هذا : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** »(٢) ، « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** »(٣) ، « **قـل أوحى الـى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا** »(٤) .

ثانيا : انها رسالة استبقت الصالح من الرسالات السـماوية السابقة وزادت عليه ما فيه صلاح البشرية فى دينها ودنياها واذا كان ذلك كذلك فانها قد نسخت جميع الرسالات السابقة وأبطلت العمل بأى منها ما دامت قد شملتها وزادت عليها ، واشترطت الايمان بكل رسـل الله وأنبيائـــه السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(١) الأعراف : ٥٩
(٢) الأنبياء : ١٠٧
(٣) سبأ : ٢٨
(٤) الجن : ١ ، ٢

« آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله ، وقالوا سمعنا واطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير »(٥) .

بل لقد اعتبر الاسـلام من لم يؤمن بأى رسـول سبق عليه كافرا ولو كان مؤمنا بمحمد ﷺ .

ثالثا : انها الرسالة الخاتمة التى ختم الله بها كل رسالات السماء بحيث لا رسالة بعدها . وصدق الله القائل فى هذا : **« ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين »(٦) .**

ولقد اخذ الله الميثاق على الانبياء ان يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه لانه جاء مصدقا لما معهم واشهدهم وشهد سبحانه معهم على هذا وذلك فى قوله تعالى : **« واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين »(٧)** تلك هى رسالة الاسلام فى صورتها الكاملة التى جاء بها خاتم الانبياء والمرسلين .

وسوف نتناولها بايجاز فى هذا الباب مركزين على بيان انها جاءت بالدعوة الى التوحيد لله رب العالمين .

***

---

(٥) البقرة : ٢٨٥ (٦) الاحزاب : ٤٠

(٧) آل عمران : ٨١

الفصل الأول

ظهور الاسلام قضى على الشرك والفساد

● العالم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم :

يجدر بنا أن نلقى الضوء على مدى التردى والشرك اللذين وصل اليهما العالم قبيل ارسال محمد ﷺ لندرك كم كان الناس فى حاجة ماسة الى بعثته ليخرجهم من الظلمات الى النور ٠

أما عن العرب : فقد سبق لنا ــ اثناء كلامنا عن اسماعيل عليه السلام ــ أن ذكرنا ما قاله ابن الكلبى فى كتابه « الأصنام » عندما كان يتكلم عن بدء حدوث الشرك فيهم ٠ وها هو يذكر فى الكتاب نفسه رواية أخرى مبينا سبب عبادة العرب للأصنام ومتى بدأ ذلك فيقول(١) :

« كان اول من غير دين اسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامى عمرو بن ربيعة وهو ــ أى ربيعة ــ لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى ، وهو ابو خزاعة ، وكانت أم عمرو بن لحى ، فهيرة بنت عمرو بن الحارث ، ويقال قمعة بنت مضاض الجرهمى ٠

وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى الولاية ، وقاتل جرهما ببنى اسماعيل فظفر بهم واجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم ٠ ثم أنه مرض مرضا شديدا فقيل له ان بالبلقاء بالشام حمة ان اتيها برئت ، فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد اهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ قالوا :

---

(١) كتاب الأصنام ص ٨

نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منهـا ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة » .

ومهما يكن من أمر ما رواه صاحب كتاب « الأصنام » من روايات عن سبب عبادة العرب للأصنام ، فان الذى يهمنا هو بيان أن تلك العبادة كانت منتشرة فيهم الى درجة أنه لم تخل قبيلة فى العرب من صنم تعبده حتى جاء الاسلام والأصنام تملأ جوف الكعبة ، وكل قبيلة من العرب كانت تحج كل عام الى صنمها تقدم له القرابين والذبائح وتستشيره فى مهامها وتطوف به تلبية لدعوة عمرو بن لحى الذى دعاهم الى عبادتها ــ حين جاء لهم بعدد منها كما سبق ــ فأجابته بعض القبائل الى ما دعا اليــه فوزع عليهم هــذه الأصنام التى كانت تسمى بأسماء اصنام قوم نوح وهى : « ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا » كما كان من اشهر أصنامهم بالاضافة الى ما سبق « اللات والعزى ومناة » التى تحدث عنها القرآن فى قول الله تعالى : « **أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى** »(٢) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه عن « اللات » : انه كان رجلا يلت السويق للحجيج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه ، ولهذا كان رضى الله عنه يقرأ : اللات . بتشديد التاء .

وقيل انه كان صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وكانت تعبدها ثقيف ومن تابعها ، ويفخرون بها على من عداهم من أحياء العرب ، وانهم اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا اللات . يعنون مؤنثة منه حاشا لله .

وأما « العزى » : فهى عبارة عن ثلاث سمرات ببطن مكة كانت قريش تعبدها وتؤثرها دون غـيرها بالزيارة والهـدية ومن أجـل ذلك نرى أبا سفيان ــ حين انتصر المشركون على المسلمين فى نهاية غزوة أحد ــ ينادى « لنا العزى ولا عزى لكم » . وعندما سمع النبى ﷺ مقالة أبى سـفيان أمر أصـحابه أن يردوا عليه بقـولهم : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

---

(٢) النجم : ١٩ ، ٢٠

ولذلك حين فتح النبى والمسلمون مكة(٣) بعث خالد بن الوليد رضى الله عنه فهدم العزى وقطع السمرات الثلاث .

وها هو المقريزى فى كتابه « امتاع الأسماع » يروى عن الواقدى ان خالد بن الوليد هدم العزى لخمس بقين من رمضان سنة ثمان ، وكان سادنها أفلح بن النضر الشيبانى من بنى سليم وانه لما رجع اليها بأمر رسول الله ﷺ ليهدمها جرد سيفه ، فاذا امرأة سوداء عريانة ناشرة شعر الرأس ، فجعل السادن يصيح بها لتحمل على خالد ، قال خالد : واخذنى اقشعرار فى ظهرى . قال:فأقبل خالد بالسيف وهو يقول:ياعز كفرانك لا سبحانك. انى رأيت الله قد اهانك ، قال فضربها بالسيف فجزلها باثنتين ، ثم رجع الى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « نعم تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب أما انها لن تعبد بعد اليوم » ، ثم قال خالد : اى رسول الله الحمد لله الذى انقذنا بك من الهلكة .

وأما « مناة » : فكان من اقدم اصنامهم ، وكانت العرب تسمى به ، فتقول عبد مناة ، وزيد مناة ، وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعا تعظمه وتذبح حوله ، ولم يكن احد أشد اعظاما له من الأوس والخزرج ، حتى انهم كانوا اذا حجوا ووقفوا المواقف كلها مع الناس لا يحلقون رؤوسهم حتى يأتوه فيحلقوا عنده ويقيموا عنده أياما لا يرون لحجهم تماما الا بذلك ، وقد بعث اليها النبى ﷺ عليا وهو فى طريقه الى مكة عام الفتح فهدمها . هكذا يقول صاحب كتاب « امتاع الأسماع » .

أما « هبل » : فكان من اعظم اصنامهم ، وكان من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى ، ادركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب . ويقال ان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، حتى أنه كان يقال له : هبل خزيمة .

يقول ابن الكلبى(٤) : « وكان لكل دار من مكة صنم فى دارهم

---

(٣) كان فتح مكة سنة ٨ هـ .

(٤) كتاب الأصنام لابن الكلبى ص ٣٣ الطبعة الثانية .

يعبدونه فاذا أراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به واذا قدم من سفره كان أول ما يصنع اذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا ، فلما بعث الله نبيه ، واتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له قالوا : « أجعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشىء عجاب »(٥) يعنون الأصنام ، وتفننت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب ، فاذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم « الدوار » ٠

من كل ما سبق ندرك فى جلاء مدى ما تمرغت فيه جزيرة العرب من شرك ووثنية قبل أن يبعث الله فيهم محمدا ﷺ ليطهرهم بدينه الجديد ، وليخرجهم من الظلمات الى النور ٠ هذا فيما يتعلق بحال العرب قبل الاسلام ٠

غير انه لا يفوتنا فى هذا المقام ان نشير الى حال العالم قبيل البعثة فنلقى الضوء على المجتمعات الأخرى التى غرقت فى ظلام الشرك والوثنية لندرك كم كان العالم كله فى حاجة الى من يخرجه مما وقع فيه من زلل وانحراف ويأخذ بيده الى نور الايمان واليقين ٠

لقد كان العالم كله قبيل بعثة محمد ﷺ بين وثنية مقيتة تتخذ آلهتها من حجارة ينحتها الناس بأيديهم وأصنام ينصبونها ويعكفون عليها ويطوفون بها ، ويذبحون لها ويهتفون بأسمائها ويطلبون رأيها ٠ ومسيحية مضطربة حادت عن الطريق المستقيم فجعلت الآلهة ثلاثة ، وقالت ان المسيح ابن الله ، ونسبت اليه الخلق والتدبير وحساب الخلائق فى يوم الحساب ، واتخذت من رهبانها وقديسيها أربابا من دون الله ٠ ويهودية مخربة نشرت الفساد فى الأرض ، وعملت على اشعال الفتن ، ونقضت عهد الله وميثاقه وانغمست فى المادية الى درجة نسيت معها حياة الروح وتلاعبت بنصوص كتابها حتى حرفتها عن مواضعها استجابة

---

(٥) سورة ص : ٥

لشهوة الرؤساء ، واتخذت من الدين وسيلة للعصبية . **ومجوسية فاجرة يقوم دينها على وجود الهين ، اله للخير ، واله للشر ، وتعبد النار وتجعل لها** بيتا تحج اليه وسدنة يذكون لهيبها . **وصابئة** عبدوا الكواكب **والنجوم ، واعتقدوا تأثيرها** ، ورجوا رضاها وقالوا عنها انها بنات الله ، **ودهرية** زنادقة دينهم الهوى وعبادتهم الشهوات . لا يؤمنون ببعث ولا حساب وصدق الله القائل فى شأن هؤلاء جميعا : **« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شىء شهيد »(٦) .**

هذا .. **وقد** روى الامام أحمد رضى الله عنه فى مسنده عن عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه ان النبى ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « **وان ربى امرنى** أن أعلمكم مما جهلتم مما علمنى **فى يومى** هذا ، كل مال نحلته عبدى حلال ، وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وان الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، **وامرتهم ان يشركوا** بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم ان الله **عز وجل** نظر الى اهل الأرض **فمقتهم عربهم وعجمهم** الا بقايا من بنى اسرائيل ، وقال : انما **بعثتك لأبتليك** وابتلى بك » .. الخ ، وما ذكرت هذا القدر من الحديث الا لأركز على **قوله** عليه الصلاة والسلام « **ثم ان الله عز وجل نظر الى** الأرض فمقتهم ــ عربهم وعجمهم ــ الا بقايا من بنى سرائيل .. »(٧) .

فان مفهوم هذه الفقرة **أن الأرض** فى هذه الفترة التى سبقت بعثة محمد ﷺ كانت قد غرقت فى ظلام الشرك والوثنية ، وعم أهلها الجهل **والفساد حتى لم يبق منهم أحد على دين صحيح الا القليل ممن تمسكوا** ببقايا من دين الأنبياء السابقين ، ومن أجل ذلك نظر الله الى أهل الأرض فمقتهم .

والحق ان الدين الصحيح قبيل بعثة محمد ﷺ كان قد التبس على

---

(٦) الحج : ١٧

(٧) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ، كما رواه مسلم فى صحيحه ٢١٩٧/٤ (ط . فؤاد عبد الباقى) القاهرة ١٩٥٥

اهل الأرض كلهم فغرقوا فى بحار الجهل والشرك والوثنية ، وما زالوا كذلك حتى بعث الله اليهم محمدا ﷺ فأخرجهم به من الظلمات الى النور، وأرسله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، فكانت بعثته اعظم ما أمتن الله به على الانسانية كلها : « **لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** »(٨) ، « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** »(٩) ٠

لقد كان الناس قبيل رسالة محمد ﷺ فى ضلال مبين ، فالعقائد ـ كما قلنا ـ كانت تتراوح بين اثنينية وتثليث وكثرة ، وفى وسط هذا التخبط فى العقيدة اختلط الخالق فى أذهان البشر بالمخلوق ، وعبد كل فريق ما سولته له نفسه من جماد ونبات وحيوان وانسان ومظهر طبيعى وغير ذلك من معبودات باطلة ، وما الى ذلك مما عجزت معه اقوى الثقافات عن علاجه ٠ بل لا أكون مغاليا اذا قلت : ان اضطراب العقيدة كان مظهرا لاضطراب البشر فى كل ناحية فأيما نظرت وجدت الضلال مجسما ، والانحطاط مخيما ، واستقرت الأوضاع فى كل جنبات الأرض على الباطل ، وانقلبت الحقائق حتى صار الباطل حقا ، والحق باطلا ٠

وبينما الناس يعيشون فى هذا الوسط المخيف ، وقد غرقوا فى بحر لجى من الظلمات القاتمة اذا بالنور المحمدى يشرق من مكة فيملأ الكون ضياء ٠

حقا ٠٠ لقد سطع نور خاتم الأنبياء والمرسلين لينقذ البشر من هذا الجحيم الذى صنعوه لأنفسهم ، ويحفظهم من التردى فى مهاوى الانحطاط ، ويرشدهم الى الصراط السوى للحياة ، ويهديهم باذن الله سبل السلام ، ويكشف لهم عن أسباب السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة ٠

لقد تنفست الانسانية ببعثة محمد ﷺ الصعداء ، وابعدت عن كاهلها

---

(٨) آل عمران : ١٦٤ (٩) الجمعة : ٢

كابوسا ظل جاسما على صدرها أعواما تلو أعوام . وبعد أن أوشكت برودة الموت أن تقضى عليها ، أخذت تدب فيها حرارة الايمان ، بعد أن حرر المصطفى العبودية لله تعالى وحده من كل عبودية للغير ، كما صحح عقيدة الناس فى الملائكة والنبوات ، وعرفهم معنى النبوة ومقاصدها حتى لا يلتبس عليهم أمر عقيدتهم فيتبعوا كل زائغ ضال وكاهن وراجم بالغيب أو شيطان مريد .

ولما كان الناس قد أخضعوا العقل للتقاليد والخرافات والكهانة ، فقد جاء محمد ﷺ ليحرر العقل ويطلق عقاله بما يعود على الانسانية بالخير ، وليدفع الناس دفعا قويا الى استخدام عقولهم فى التفكير فى الكون ليسمو فيهم الجانب الروحى . وفى تسخير الأشياء للانسان ليرقى فيهم الجانب المادى .

لقد حرر محمد ﷺ الانسانية من ظلم البشرية وتناقضاتها ، ووحد القوى الانسانية وأهدافها ووضع أصول الخير التى تقود العالمين الى السعادة القصوى . ويبدو هذا واضحا فى توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل متفرقة ، وفى قضائه على ما الفوه من وثنية متوارثة منذ آماد طويلة ، واحلاله محلها دينا سماويا يرفع الانسان الى اعلى مراتب السمو ، وفى احداثه اصلاحا اجتماعيا قلب اخلاق العرب من جاهلية متخلفة وما تشتمل عليه من ضياع حقوق المستضعفين ، والانغماس فى الشهوات الجسدية الى تحقيق العدالة الاجتماعية التى لا تفرق بين الضعفاء والأقوياء .

* * *

نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم

ثبت أنه محمدا عليه الصلاة والسلام قد نشأ اميا ، لم يقرأ كتابا ، ولا قال شعرا ، ولا ارتجل خطبة ، ولا تراس قبيلة ، ولا انتحل كهانة ، ولا وقع فى محظور ممــا وقع فيه قومه وبقى هكذا شــأنه حتى بلغ مبلغ الأربعين ٠

ومن المشاهد المسلم به ان اى شخص تظهر عليه بوادر النبوغ فى علم ما ، لا شك تظهر آثاره فى عنفوان شبابه ، ومحمد ﷺ فى هذه الفترة لم يظهر عليه شىء من هذا القبيل ، بل جل ما اتصف به هو الصدق والأمانة والعزوف عن مخالطة قومه فى المجون واللهو وعبادة الأصنام ، بل لقد كان يهجر هذا المجتمع الفاسد ويذهب الى غار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، وما زال كذلك حتى هبط عليه الوحى السماوى ، حيث جاءه جبريل وأمره أن يقرأ مرارا ومحمد ﷺ فى كل مرة يقول له : ما انا بقارىء ، فقال له جبريل : «**اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق ٠ اقرأ وربك الأكرم ٠ الذى علم بالقلم ٠ علم الانســان ما لم يعلم ٠٠٠** »(١) ٠

وكانى بجبريل يقول لمحمد ﷺ : ربك يعلم انك لا تعرف القراءة ، ولكنه تكفل بتعليمك ٠ فانت وحدك ستتعلم علما لدنيا الهيا ، واما غيرك من البشر فيتعلمون عن طريق القرطاس والقلم ٠

ورجع محمد ﷺ الى بيته خائفا مرتجفا يقول لزوجته خديجة بنت خويلد : دثرونى ٠ دثرونى ٠ فدثرته حتى ذهب عنه الروع ، ثم سألته ما به ؟ فأخبرها فطمأنته وقالت له : والله لن يخزيك الله أبدا ٠ انك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتكسب الكل ، وتعين على نوائب الدهر ٠

---

(١) العلق : ١ ـ ٥

لقد ادخلت خديجة بهذه الكلمات الأمن والطمانينة الى نفس محمد ﷺ ، فأدرك من خلال كلماتها الحانية أن ما حدث له ليس شرا ، لأنه لم يصنع الشر أبدا ، وانما فيه كل الخير . ثم اخذته وذهبت به الى ورقة بن نوفل واخبرته بما حدث فقال له : ان هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ، وان يدركنى يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا .

لقد طمان ورقة بن نوفل محمدا ﷺ واخبره بان هذا وحى أوحى الله به ليكون رسولا يدعو الناس الى عبادة الله رب العالمين . فهدأت نفس محمد ﷺ واطمان فؤاده ، وأخذ يترقب فى غار حراء هبوط الوحى عليه بعد أن كان قد انقطع عنه فترة الى ان جاءه جبريل وتتابع نزول جبريل بالوحى على رسول الله ، طالبا منه اولا ان ينذر عشيرته الأقربين ، فهم أولى الناس بتصديقه وفعل الرسول ما أمره به ربه ودعا أقرباءه سرا وآمن به منهم من آمن ، ثم أمره الله ـ بعد فترة ظلت فيها الدعوة سرا ـ ان يصدع بما يؤمر . ونفذ الرسول أمر ربه ، ونادى فى الناس الذين اجتمعوا حوله قائلا : « لو اخبرتكم ان خيلا تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقى » ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط . فقال لهم : « انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة » .

* * *

موقف المشركين من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم

عندما اخبر محمد ﷺ المشركين أنه رسول الله اليهم خاصة والى الناس عامة ، وانه جاءهم بدين جديد يدعوهم الى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، كان أول من صده عن دعوته عمه أبى لهب حين قال له والناس مجتمعون : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟

وماذا يفعل سادة قريش وقد وجدوا عمه يقف منه هذا الموقف ؟ لقد تفننوا فى صد دعوته كما تفننوا فى ايذائه هو ومن آمن به ويكفى ان نشير فى هذا المقام الى الصحيفة التى كتبوها وعلقوها فى جوف الكعبة والتى نصوا فيها على مقاطعة بنى هاشم وحاصروا الرسول مع أهله ومن آمن به فى شعب ابى طالب لا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، وظل المسلمون معزولين عن المجتمع القرشى بمقتضى هذه المقاطعة ثلاث سنين حتى اشتد عليهم الأمر الى ان اكلوا أوراق الشجر وشاء الله ان تنتهى هذه المقاطعة عندما رفض المنصفون منهم هذا العمل الآثيم فمزقوا الصحيفة وخرج الرسول والمسلمون من هذه المقاطعة اشد عزما واصرارا على مواصلة نشر دعوة الاسلام ٠

لقد وجد المشركون فى دعوة محمد ﷺ خطرا يهدد مكانتهم فى قومهم فقاوموها بكل اصرار وعناد ، لقد ذهبوا الى عمه ابى طالب ذات مرة وقالوا له : ان ابن أخيك عاب آلهتنا ، وسفه أحلامنا ، وفرق بين المرء وزوجه ، والأب وابنه ، والأخ وأخيه ، فان لم تمنعه عن هذا حاربناك ٠ وهنا قال محمد ﷺ لعمه:«لو جعلوا الشمس فى يمينى،والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ٠ لقد اشتد أذى المشركين للرسول وصحبه حتى اضطروهم للهجرة الى الحبشة مرتين ٠ لقد فكر المشركون فى حيلة أخرى عساهم ينجحون

عن طريقها فى اقناع محمد ﷺ بالتوقف عن دعوته . فارسلوا اليه من يعرض عليه أمورا ثلاثة يختار من بينها ما يشاء ، واختاروا لهذه المهمة شخصا معينا فيه مواصفات المحدث اللبق وهو الوليد ابن المغيرة الذى كان اعلمهم بالشعر وطلاقة اللسان فذهب الوليد الى محمد ﷺ وقال له : يا ابن أخى ، ان كنت تريد بهذا الأمر الذى جئتنا به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك مس من الجن بذلنا لك الطب حتى تبرأ .

ولما انتهى مبعوث المشركين من حديثه مع الرسول ، قال الرسول الكريم له : أانتهيت ؟ فقال له : نعم . فقال له : فاسمع مني اذن ، واخذ الرسول يقرأ عليه بضع آيات من القرآن الى ان وصل الى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »(١) . فانتفض الوليد من مجلس الرسول وخرج لا يلوى على شىء الى ان وصل الى المشركين الذين كانوا فى انتظاره ليعرفوا نتيجة المقابلة فابتدرهم الوليد قائلا : انكم تعلمون انى اعلمكم بشعرى الجن والانس ومع ذلك فقد سمعت اليوم من محمد كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه .

فقال المشركون له : لقد سحرك محمد . فقال لهم : ما هو بساحر . فسألوه عن رأيه فيه . فأخذ يفكر وينظر يمنة ويسرة ثم قال : انه ساحر .

وهكذا يناقض الوليد نفسه فى شأن محمد ﷺ ، فبعد ان نفى السحر عنه قال انه ساحر . ولو أنه اهتدى لاهتدى معه القوم وآمنوا بدعوة محمد ﷺ خاصة وان الوليد كان مرموقا فى قومه نفد كان وحيداً فيهم من حيث الغنى وكثرة الأولاد حتى يروى عنه انه كان يتكفل بالحجيج وحده عاما وقريش كلها عاما آخر .

---

(١) فصلت : ١٣

ولقد سجل القرآن هذه الواقعة فى قوله تعالى : « **ذرنى ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا • وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا • ثم يطمع أن أزيد • كلا انه كان لآياتنا عنيدا • سارهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم ادبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر • سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقى ولا تذر • لواحة للبشر • عليها تسعة عشر** »(٢)

ونفد صبر المشركين ، وانفلتت اعصابهم فراحوا يدبرون لقتل محمد ﷺ ، وخططوا وبدأوا فى التنفيذ ، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ نبيه حيث امره بالهجرة الى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة قضاها بمكة داعيا الى الله ، فى داخل جزيرة العرب ، وخارجها من الممالك المجاورة ، حيث كان يرسل اليهم الرسل ليؤمنوا برسالته فيتعسفون معهم ويقتلون بعضهم ، هذا قليل من كثير مما لاقاه محمد ﷺ من صنوف الأذى فى سبيل دعوته •

وهاجر الرسول الى المدينة سرا ، يرافقه فى هجرته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لحق به اصحابه ، فاستقبلتهم المدينة بأنصارها الذين كانوا قد آمنوا بدعوته من قبل وبمهاجريها الذين سبقوه بالهجرة اليها •

وهكذا كانت المدينة منطلقا جديدا انطلق منه رسول الله ﷺ بدعوة التوحيد الى كل أرجاء الدنيا بعد ان خاض فى سبيلها الغزوات الطاحنة حتى علت راية التوحيد ، ودخل مكة فاتحا فى العام الثامن للهجرة ، وحطم الأصنام ، واندحر الشرك واهله ، وهكذا جاهد الرسول فى سبيل نشر دعوة التوحيد ، ولذلك صح عنه انه قال : « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » •



---

(٢) المدثر : ١١ – ٣٠

● **رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عالمية وخاتمة :**

هذا ٠٠ ولم يكن من قبيل الصدفة أو الاتفاق ان يختم الله الديانات السماوية بالاسلام ، وان يجعل محمدا ﷺ آخر لبنة فى بيت النبوة العتيد ، فيتم بها بناؤه ، بل ان ذلك امرا اقتضته طبيعة الاسلام نفسه ، فهو دين لم ينزل لاصلاح مؤقت ، أو لهداية امة مخصوصة من الناس حتى يكون بقاؤه رهنا بهذا العصر من الزمان ، أو هذه الأمة من البشر . وانما هو دين بلغ من العموم والاطلاق الدرجة التى جعلته فوق اعتبارات الزمان والمكان جميعا .

فالاسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو النظام الالهى الكامل الذى لا يمكن للانسانية فى سعيها المتصل لبلوغ الكمال الانسانى ان تجد ارقى منه ، أو ما يدانيه فى جميع مجالات الرقى عقليا كان أو نفسيا ، خلقيا كان ام عاطفيا ، روحيا كان أم ماديا ، فرديا كان أم اجتماعيا . وحينئذ فلا يكون هناك مجال لرسالة الهية أخرى ، أو لرسول جديد ، فانه لن يستطيع ان يضيف الى كمال الاسلام كمالات اخرى لم يات بها الاسلام بل كل كمال انسانى ممكن فقد جاء به الاسلام .

ولهذا صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال - وقد رأى بيد عمر رضى الله عنه صحيفة من التوراة يقرأ فيها - : « لقد جئتكم بها بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك . والذى نفسى بيده لو كان موسى ابن عمران حيا ما وسعه الا اتباعى » .

***

الفصل الثاني

عقيـدة التوحيد

كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم من خلال النصوص القرآنية

● اسس العقيـدة الاسـلامية :

جاء الاسلام بعقيـدة ذات اصول راسخة ، بحيث لا يمكن لعقـول كل المفكرين والفلاسفة ان ينقضوا اصـلا واحدا منها · فهى عقيدة قوية وبسيطة لا شطط فيها ولا انحراف ، ترتكز على اسس ثابتة من الفطرة الانسانية العامة ، والمنطق العقلى المسـتقيم ، والنصـوص الدينيـة الصريحـة ·

انها عقيدة تقـوم اولا واساسا على الايمان باللـه ربا واحـدا له الربوبية المطلقة على الأشياء كلها خلقا وملكا وتدبيرا ، ورعاية وحفظا ، لا شركة لأحد معه أصـلا ، لا فى خلق شىء ولا فى تدبير أمر : « **ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين** »(١) · وأن خلقه تعالى للأشياء تم بقدرته وحدها على وفق علمه ومشيئته دون معين او وسيط ، وان تدبيره لها يجرى وفق قوانين ثابتة ، وسنن مطردة اقتضتها حكمتـه ، فلا يستطيع احـد لها تحويلا ولا تبديلا ، وأنه خلق الانسـان ونفخ فيه من روحـه ، وجعله سيد هذه الكائنات بما منحه من سلطان العقـل ، وقـوة الفكر ، وسـعة الحيلة ، والقدرة على اكتشاف المجهول ، وجعل الأشياء كلها مسخرة له وطوع ارادته ، يستخدمها فيما يعود على افراده بالخير ، وييسر لهم سـبل العيش ، ويعرج بهم فى مدارج الرقى والكمال ·

كما تقوم هذه العقيدة على الايمان به كذلك الها واحدا لا تنبغى

---

(١) الأعراف : ٥٤

الالهية الا له . وعلى الايمان بأن له وحده الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وانه متصف بجميع الكمالات التى وصف بها نفسه فى كتابه ، ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم اتصافا حقيقيا على الوجه الذى يليق به من غير أن يقتضى ذلك تشبيها له بأحد من خلقه فانه « **ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير** »(٢) مع وجوب تنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص التى تضاد كماله . وعن الشريك والصاحبة والولد والند والضد والشبيه والنظير .

كما تقوم هذه العقيدة أيضا على الايمان بملائكة الله على الوجه الذى ورد فى الكتاب والسنة من أنهم « **عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** »(٣) . وأنهم « **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** »(٤) . و « **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** »(٥) .. الخ .

كما تقوم على الايمان باليوم الآخر وما يشتمل عليه من فناء الدنيا وفساد نظامها وخروج الناس من قبورهم احياء وحشرهم الى ربهم . وفصل القضاء بينهم ومحاسبتهم على ما قدموا لأنفسهم وما كسبته ايديهم من خير أو شر .

وتقوم عقيدة الاسلام ايضا على الايمان بقضاء الله وقدره ايمانا يحمل الى النفوس الطمأنينة والرضا ، وينفى عنها الهلع والجزع ويحملها على التسليم لله فيما قدره ، من غير أن يتخذ الايمان بالقدر تكئة للعجز والكسل والتقصير والعصيان .

وبالجملة : فهى عقيدة تقوم على ان دين الله واحد هو الاسلام الذى بعث به رسله وانزل به كتبه ، وأن الأنبياء كلهم اخوة ابناء علات

---

(٢) الشورى : ١١
(٣) الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٨
(٤) التحريم : ٦
(٥) الأنبياء : ١٩

دينهم واحـد وامهاتهم شتى ، وأن الواجب هو الايمان بهم وبما انزل اليهم جميعا(٦) ·

فهل فى هذه العقيدة الاسلامية ما **يجافى الفطرة ، أو يكابر العقـل ، أو** يستعصى على الفهم ، أو يتنافى مع **مقررات العلم ؟**

لا ·· انها فى صراحتها وبساطتها وقوتها يجب أن تكون عقيـــدة الانســانية كلها لتنجو بها مما تعانيه من فساد العقائد واضطراب الأخلاق ·

* * *

---

(٦) دعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ·

القرآن حارب الشرك ودعا الى التوحيـد

ولعل من المفيد بعد الذى سبق أن نلقى الضوء على عقيدة التوحيد كما جاء بها القرآن دستور الاسلام الأول فنقول :

جاء الاسلام فأبطل ما كان عليه العرب من عبادة غير الله ، وقرر – من خلال نصوصه – التوحيد المطلق لله فى الذات والصفات والأفعال والتوجه له بالعبادة وحده وفى هذا يقول الله تعالى : « **والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم** »(١) .

وعلى هذا ، فالتوحيد هو القاعدة الأولى فى الاسلام ، والتى يجب أن يؤمن بها قلب المسـلم وينطق بها لسـانه بقوله : « أشهد أن لا اله الا الله » .

فكلمة « الله » هـو الاسم الذى يطلق على الخالق جل وعلا ، اما كلمة « الاله » فتستعمل للدلالة على المعبود أيا كان .

واذن فكلمة « لا اله » نفى لكل معبود فى الوجـود ، وابطـال لعبـادته ، وكلمة « الا الله » اثبات لعبادة المعبود بحق وهو الله سبحانه وتعـالى .

فشهادة المؤمن « لا اله الا الله » تعنى اعترافه بلسـانه مع اعتقاده بقلبه أن لا معبود الا الله ، والشهادة بهـذا هى الشهادة بوجود الله تعالى وبوحدانيته .

هذا ، وقد قضت سنة الله فى خلقه أن يكون للعقائد سـلطان على الأعمال البدنية ، فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فسـاد فانما مرجعه فسـاد العقيدة أو صلاحها . فالتوحيد فى الاسـلام الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب ، تتبعه حتما جميع الفضائل ، وكلمة التوحيـد تعمق

---

(١) البقرة : ١٦٣

فى قلب قائلها : ان لا معبود بحق ولا محيى ولا مميت ولا رازق ولا نافع ولا ضـار الا الله وحده ٠

اضف الى ذلك ان المؤمن يستفيد من عقيدة التوحيد الحرية والاستقلال بحيث يشعر من اعماقه أن لا سلطان لأحد عليه الا الله ٠ ويرى ان ما طرأ على الناس من خضوع للأوثان وللبشر أو لغيرهما ، انما سببه جهلهم بالمؤثر الأعلى ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم النهى عن دعاء غير الله وذلك فى قوله تعالى : « **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعـون من دون اللـه لن يخلقـوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** ٠ ما قدروا الله حق قدره ، **ان الله لقوى عزيز** »(٢) ٠

ففى هاتين الآيتين يتحدى الله الكفار ، ويبين عجز الآلهة التى يعبدونها ، وعجزهم هم من باب أولى عن ان يخلقوا أحقر المخلوقات وهو الذباب ٠

ويستشهد ابن كثير فى تفسيره للآيتين بالحديث المروى فى الصحيحين عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : «ومن اظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة » ٠ ويذكر ان الأصنام والأنداد التى يعبدها الكفار عاجزة عن خلق ذباب واحد ، بل عاجزة عن مقاومته والدفاع عن نفسـها لو سلبها شيئا من الأشياء ٠ قال تعالى « **ضعف الطالب والمطلوب** » قال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ٠ وقال السدى وغيره : الطـالب العابد ، والمطلوب الصنم ٠

وفى هذا يقول فضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فى كتابه « الدين » بعد أن استعرض فضيلته المذاهب التى قال بها المفكرون لاثبات وجود الله ووحدانيته : « ان الذى يستعرض أساليب الهداية القرآنية الى عقيدة الألوهية يجدها قد احاطت بأطراف هـذه

---

(٢) الحج : ٧٣ ، ٧٤

المســالك ، واشبعت تلك النزعات جميعا ، بل ربما زادت فى كل منهج عناصر جديدة لم يفطن اليها الباحثون المذكورون »(٣) .

كما جاء فى القــرآن فى مجــال النهى عن دعــاء غير الله من البشر قوله تعالى : « **ان الذين تدعــون من دون الله عبــاد أمثالكم فادعــوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين** »(٤) .

ويأمر الله خاتم الرسل محمــدا ﷺ بأن يخاطب قومه بقــوله : « **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله** »(٥) .

ان الذى لا جــدال فيه ان المؤمن يستفيد من عقيــدة التوحيــد ـ بالاضافة الى ما سبق ـ الأنفة والعزة ، مادام اعتقــاده أن لا رازق الا الله « **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** »(٦) .

كما يستفيد الشجاعة وعدم هيبة الموت لأن الذى يملك أجله هــو الله وحده وبذلك ترتفع نفســه الى الأنفة والعــزة والاباء والاســتشهاد فى ســبيل الحــق « **وما كــان لنفس أن تمــوت الا باذن الله كتــابا مؤجــلا** »(٧) .

ان القرآن الكريم ملىء بالبراهين التى تقنع العقل بوحدانية الله تعالى ، وذلك حين لا يأمر معتنقى الاسلام بعقيدة الا بعــد أن يعرض البراهين العقلية على صحتها ، ولا يهاجم أخرى الا بعــد أن يبين تفاهتها وبعدها عن الصواب . فتعدد الآلهة مثلا يجعل البشر عبيدا لآلهتهم ولذلك كان يقع على عاتق الانســان من جراء تعدد الآلهة من الأعبــاء ما تنوء به استعداداته كتقديم الهدايا والنذور والقرابين والشعائر العملية التى ترضى الآلهة كما زعموا .

---

(٣) كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٤ ـ ١٠٦ . ط . دار القلم . الكويت سنة ١٩٨٠ .

(٤) الأعراف : ١٩٤
(٥) الزمر : ٣٨
(٦) العنكبوت : ٦٢
(٧) آل عمران : ١٤٥

ولهذا يخاطب القرآن المشركين على لسان يوسف عليه السلام قائلا : « **الرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار • ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه** »(٨) •

وعند التأمل فى هذا النص القرآنى نراه يستهل خطابه بتبيان الفرق العظيم بين عبادة اله واحد يخضع الجميع لحكمه ، وما يستدعيه ذلك التوحيد من التخفيف عن كاهل الانسان من التضحيات المرهقة ، والشعائر الوهمية ، كما أن هذا التوحيد يوحد بين البشرية ، ويقضى على كثير من أسباب الخلاف الذى نشأ بسبب اختلاف المعتقدات • ثم ينتقل القرآن الى محاجة المشركين قائلا : **كيف تعبدون** آلهة من صنعكم اطلقتم عليها أنتم وآباؤكم أسماء مختلفة « **ما أنزل الله بها من** سلطان » اى ما جعل الله فيها من حجة وبرهان عقلى يطمئن بها من يعبدها من دون الله •

على أن الانسان بعد التمعن فى أسرار الكون وما حواه من النظام ودقة الصنع ووحدة الهدف الذى يجمع بين أجزائه لابد أن يؤمن بوحدانية الله وتظهر له روعة هذا النص القرآنى الذى يقرر هذه الحقيقة حين يقول : « **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون • لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** »(٩) •

ولقد كان الشيخ محمد عبده رحمه الله موفقا فى كلامه حول هذه الآية وذلك فى افتراضه الذى أورده فى « رسالة التوحيد » والذى يبين فيه تعدد الآلهة والنتيجة المترتبة عليه فقال « لتخالفت ـ أى الآلهة ـ علومهم وارادتهم فتتضارب افعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل ان يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن وجود كل ممكن لابد ان يتعلق به الايجاد حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم ان يكون للشىء وجودات متعددة وهو محال • لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه ـ وهو الله ـ

---

(٨) يوسف : ٣٩ ، ٤٠ (٩) الأنبياء : ٢١ ، ٢٢

واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى افعاله »(١٠) .

ثم ان القرآن لا يكتفى ببيان ان الفساد الذى يعترى الكون يكون من جراء تعدد الآلهة ، بل يصف بعض مظاهر هذا الفساد وصفا يرتفع به الى أعلى مراتب الاقناع ، ويفحم المكابر بالأدلة التى لا يمكنه دحضها ، فيقول : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون** »(١١) .

* * *

● وحدة النظام فى الكون دليل على وحدانية الله :

ولقد انفرد القرآن بالبراهين المدهشة فى الدلالة على وحدانية الله — فهو بالاضافة الى ما سبق يقرر أن وحدة الأنظمة الكونية دليل على موجد واحد لها ، ولنستمع فى هذا الى قوله تعالى : « **قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذن لابتغوا الى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا** »(١٢) .

ومعنى الآية والله اعلم : قل لو كان مع الله آلهة كما يقول المشركون لطلب هؤلاء الآلهة طريقا يصلون به الى الله صاحب الملك ليتنازعوا عليه ، تنزه الله — جل وعلا — عن ان يكون معه آلهة ، وكيف يكون له شريك ؟ والسموات والأرض ومن فيهما تشهد له بالوحدانية ، وتنزهه وتقدسه حمدا له ولكن لا نفقه هذا التسبيح ولا ندرك حقيقته .

انها حقيقة اعلنها القرآن منذ كان ينزل على محمد ﷺ فى وقت كان العلم لا يفقه فيه شيئا من أسرار الكون .

---

(١٠) رسالة التوحيد ، للشيخ محمد عبده ، ط . دار المنار بمصر .
(١١) المؤمنون : ٩١ (١٢) الاسراء : ٤٢ — ٤٤

« لكن فى هذا العصر توصل العقل البشرى الى ادراك بعض أسراره ، فتعلموا أن هناك حركة دائمة لا تنقطع فى ذرات كل شىء ، فى الأجرام السماوية والمخلوقات الحية والمادة الصماء . فقد ثبت أن مادة أى عنصر من عناصر هذا الكون تتألف من ذرات وكل ذرة تتألف من عنصرين هما « النيوترون » و « البروتون » وهذان العنصران يطلق عليهما « نواة الذرة » يضاف اليهما عنصر ثالث هو « الالكترون » الذى يدور حول « نواة الذرة » فى أفلاك . وهذا الترتيب وما فيه من نظام ، يشبه النظام الشمسى ، اذ هو مجموعة شمسية مصغرة ، فنواة الذرة تقابلها الشمس ، والالكترون الذى يدور حول نواة الذرة يقابله الكواكب السيارة دائرة فى أفلاكها حول الشمس . كذلك بينت الدراسات العلمية أن مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزى ، ولقد وجد أيضا أن المجاميع النجمية فى حالة دوران متشابهة »(١٣) .

واذن .. فالنتيجة التى نصل اليها بعد التمعن فى اسرار الكون هى : أن الكون بوحدة انظمته يدل على وحدانية الله الذى خلقه ، وأن هذه الحركة الدائمة فى النجوم وذرات كل شىء لسنا نبالغ فى القول بأنها مظهر من مظاهر تقديسها لله خالقها ولعلها المشار اليها فى الآية : « **وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** »(١٤) .

* * *

● **الاسلام هاجم الاشراك بالله :**

بين الاسلام فساد الاشراك وبطلانه وذلك فى قوله تعالى : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** »(١٥) .

---

(١٣) انظر كتاب « روح الدين الاسلامى » للأستاذ عفيف طبارة ص ٩٦ ، ٩٧ عن كتاب « الشمس » للدكتور جورج جامو .

(١٤) الاسراء : ٤٤ (١٥) النساء : ١١٦

وليس من شك فى أن الشرك وليد الجهل والوهم ، ولأنه يجلب من المساوىء للمجتمع الانسانى ما لا تجلبه عقيدة أخرى ، وهو بجانب مناقضته للعقل والمنطق يجعل الأذهان مهيأة لقبول كل الأوهام والخرافات التى تهدم كيانه وتقف سدا منيعا دون ازدهاره وتقدمه .

لقد هاجم الاسلام الشرك بكل صنوفه ، وكان هدفه من هذا الهجوم تحرير الانسان من الخضوع لأى مخلوق على هذه الأرض يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى فى هذا(١٦) : « صنع الاسلام ذلك لأنه أراد للانسان هدفا أسمى مما فى عالمه ، أراد أن يكون خضوعه وأن تكون طاعته لغير من يجوز عليه التغير والفناء ، والمتغير الفانى ليس الا أشخاص هذا العالم الذى نعيش فيه . أراد له هذا لأن خضوع الانسان للمتغير الذى يعتوره الفناء معناه التقلب فى الانقياد على نحو يجعل الانسان مضطربا فى التوجيه فى حياته ومضطربا فى الغاية ، وأخيرا مضطربا فى دوافع العمل والسلوك ... فمهاجمة الاسلام للشرك ... كانت لأجل أن يرفع الانسان من عبادة الشخص المحدد المتغير الفانى الى ما وراء ذلك مما له الدوام والاستقرار ، واذا كان له الدوام والاستقرار كان حتما له الكمال ... واذا كان دائم الكمال شرف الانسان بالخضوع له لأنه أعلى قيمة منه وبقيت كذلك وجهته فى الحياة ثابتة لا تبدل فيها وهى وجهة الكمال المطلق » . ولهذا جاء فى القرآن « **ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم** »(١٧) .

ان الاسلام حين هاجم الاشراك لم يكتف باقامة البرهان العقلى على توحيد الله فحسب ، بل نراه وقد دحض الشبهات ، وفصل الحجج العقلية والعلمية بالعبارات المختلفة ، ففى سورة الاخلاص يقول الله تعالى : « **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** »(١٨) . ويقول جل شأنه : « **الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا .**

---

(١٦) نقلا عن بحث نشره فضيلته فى مجلة « الرسالة » .

(١٧) النحل : ٦٠ (١٨) سورة الاخلاص .

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شـيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا »(١٩) ٠

لقد اثبت المولى جل وعز فى هـذه الآيات أن الكون ملكه ، وأنه لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى ملكه ، وأنه خلق كل شىء على نواميس خاصة ، ثم استهجن الله عبادة المشركين لآلهة مخلوقة لا تملك الضرر او النفع ، بل الأهم من ذلك أنها لا تملك القدرة على احياء الميت ٠ فمعجزة الحياة وسلطان الموت هما اللغزان الذى وقف الانسان أمامهمـا عاجزا لا يجد لهما تفسـيرا غير وجود قدرة عليا فوق قدرته ، وهى قـدرة الله تعالى ٠

* * *

● القرآن يستعرض مظاهر الاشراك بالله :

لقد استعرض القرآن مظاهر الاشراك بالله ، وتعرض لكـل منهـا بالنقد والذم ، كما بين فسـادها بأسـاليب علميـة غير قابلة للجـدل ٠ ومن هذه المظاهر :

عبادة الأشخاص : هى نوع من انواع الاشراك بالله تعالى ، فكثيرا ما اله البشر بعض أبنـاء جنسهم اعتقادا منهم بأنهم يتمتعون بخواص ينفردون بها عن غيرهم

ولذلك كانت دعوة القرآن الى عبادة الله وحده ، وعدم عبـادة البشر بعضهم بعضا من المبادىء العظيمة التى جاء بها القرآن ٠ ومن أجل ذلك وجه الاسلام الخطاب الى اليهـود والنصـارى ، واضعا الأسـس الراسخة التى يجب ان تلتقى حولها هـذه الديانات الثلاث فى سبيل اسعاد البشرية ورفع الظلم والاسـتغلال اللذين تؤدى اليهما عبـادة الشـخصية الانسانية ، وذلك فى قوله تعالى : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سـواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** »(٢٠) ٠

---

(١٩) الفرقان : ٢ ، ٣ (٢٠) آل عمران : ٦٤

كما **بين** القرآن بطـلان هـذا الشطط فى الاعتقاد بالنسبة للأقوام **الذين** اتخذوا من بعض انبيائهم ومصلحيهم بعد مماتهم آلهة او انصـاف آلهة بقوله تعالى : « **ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمـركم ان تتخـذوا الملائكة والنبيين اربابا ، ايامركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون** »(٢١) .

ومعنى هذا النص الكريم : ان الله سـبحانه لم يؤت لبشر العـلم والحكمة والنبوة ليطلب هـذا النبى من الناس ان يعبدوه من دون الله ، ولكن ليقول لهم : كونوا عابدين للرب بمقتضى ما علمكم من كتابه الالهى وما درستم فيه ، ولا يمكن ان يأمركم الله بأن تجعلوا الملائكة والنبيين اربابا من دونه لأن ذلك كفر ليس من المعقول ان يأمركم به بعد ان اصبحتم مسلمين .

ان كثيرا من الأمم قد اشتهرت بعبادة المصلحين والأنبياء فالمعـلم « بوذا » مثلا لم يدع الألوهية فى حياته ، ولكن كثيرا من اتباعه الهوه بعد مماته ونصبوا له التماثيل ، ومن اجل هذا الشطط فى الاعتقاد حرص الاسلام على معالجة هذه النظرة الضالة الى المصلحين والأنبياء ، واحتاط لها خـوفا على اتباعه من تأليه صاحب الدعوة الاسلامية ﷺ ، فكان من صميم المعتقدات الاسلامية بأن محمدا بشر كسـائر البشر ، وانه عبد الله ورسـوله . وها هو رسول الاسلام يأمره ربه ان يخاطب اتباعه قائلا : « **قل لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السـوء ، ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون** »(٢٢) .

وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى فى آخر سورة الكهف : « **قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا** »(٢٣) .

---

(٢١) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠   (٢٢) الأعراف : ١٨٨
(٢٣) الكهف : ١١٠

ومن مظاهر الاشراك بالله عبادة الأصنام والأوثان التى كانت منتشرة انتشارا واسعا قبل الاسلام فى جزيرة العرب كما تشير روايات المؤرخين الى ذلك ، منها ما سبق لنا ذكره ، ومنها ما جاء فى أخبار فتح مكة أن الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت ، ورأى فيها ستين وثلاث مائة صنم فأمر بها فكسرت(٢٤) .

ولا شك أن عبادة الأصنام والأوثان من الأمور المشينة التى طغت على الجنس البشرى ردحا طويلا من الزمن ، ثم اندثرت تباعا على أيدى الرسل .

ولكن اذا ذهبنا نسأل عن الدوافع التى دفعت العرب الى عبادة أحجار ومعادن لا حياة فيها ولا نفع ولا ضرر وجدنا القرآن يذكر هذه الدوافع على لسان المشركين فى تعليلهم لعبادة الأوثان : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »(٢٥) .

وهذا التعليل الذى يتعلل به هؤلاء ، وحجتهم فى أن وجود الصنم امام المتعبد يساعد على تركيز الفكر والتعمق فى التفكير للتقرب من الله يرفضه الاسلام رفضا قاطعا ، لأن وجود الصنم امام المتعبد يصرفه عن الله وعن التفكر فيه ، بل الفكر المستقيم ، والمنطق العقلى السليم يقرر أن التقرب الى الله انما يحصل بالتوجه رأسا اليه سبحانه بدون واسطة صور أو جماد ، وهذا أدعى لطبيعة الانسان فى رفع قيمته المعنوية ، وعدم جعل أحد قيما عليه ، خاصة وأن الانسان كثيرا ما يلجأ الى الله فيما يأتيه من محن ومصائب لا تتوافر له فيها الواسطة ففكرة الوساطة للأحجار والأصنام بين الانسان وربه فكرة يرفضها الاسلام كما يرفض تعليل المشركين لعبادة غير الله تقليدا للآباء كما فى قولهم « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »(٢٦) لأن الله أعطى العقل للانسان ليميز به بين الخير والشر والنافع والضار ومن أجل ذلك

---

(٢٤) ابن الأثير ، ص ٢ – ١٥ (٢٥) الزمر : ٣
(٢٦) المائدة : ١٠٤

كان على المشركين ان يدركوا بعقولهم ان آباءهم كانوا فى عبادتهم للاصنام على ضلال ، وان عليهم ان يعدلوا عنها الى عبادة الله وحده .

اضف الى ما سبق أن العرب قبل الاسلام كانوا يعتبرون الاصنام من جملة الشفعاء الذين يشفعون لهم ، ولذلك كانوا يقدمون القرابين والنذور الى الهياكل والمعابد لتكون شفيعة لأصحابها لدى الآلهة فى استجابة مطالبهم (٢٧) . ومن أجل ذلك صرح القرآن بأن الشفاعة لله وحده « **قل لله الشفاعة جميعا ، له ملك السموات والأرض** »(٢٨) . واكد على ان الشفاعة لا تكون لأحد من مخلوقات الله الا بعد اذن منه « **ما من شفيع الا من بعد اذنه** »(٢٩) . ويعيب القرآن على المشركين اتكالهم على الشفاعة ، ويبين بطلان ذلك بقوله : « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** »(٣٠) .

ولا جدال فى أن القرآن بهذا المسلك يقطع الأمل الذى يتعلل به العصاة المتوكلون على الشفاعة ، كما يحول بين كل مدع من البشر للصلاح والتقوى لاستغلال الناس بانه شفيع لهم عند الله . ويبين أن المدار جميعه على أعمال الانسان ونياته التى بموجبها يكون من الناجين أو الهالكين فى يوم تشخص فيه الأبصار .

والحق أن الاسلام قد حارب كل مظاهر الاشراك فى العبادة من عبادة الأسلاف ومظاهر الطبيعة وغير ذلك مما انحرف اليه البشر وقرر توحيد الله توحيدا مطلقا فى ذاته وصفاته بحيث يتوجه الانسان الى ربه توجها كليا يحرره من عبودية الأفراد ويهبه الكرامة الانسانية ويقوى نفسه على مجابهة أحداث الحياة ، ويجعله فردا صالحا يقوى به المجتمع الانسانى ويرقى .

ولا نجد دينا يصف مقام الألوهية وما يليق بها من كمال ومعرفة

---

(٢٧) تاريخ العرب قبل الاسلام . للدكتور جواد على ، جـ ٥ ص ٦٥

(٢٨) الزمر : ٤٤ (٢٩) يونس : ٣

(٣٠) يونس : ١٨

كما فعل الاسلام ، فالدارس للقرآن يستشعر من خلال آياته فى وصف الخالق شعورا مليئا بالخشوع والانبهار لهذه الذات الالهية التى لا يحدها فكر ، ولا يحيط بها عقل . كما يجعله بمنأى عن الاشراك به سبحانه ، ويوجهه بكل كهنه الى اعتقاد انه لا اله سواه .

هذا هو الاسلام دين التوحيد الخالص الذى ختم الله به كل رسالات السماء . والذى جاء به محمد ﷺ للانسانية كلها ، ليخرجهم من الظلمات الى النور فجاءت رسالته مشتملة على أصول العدالة المطلقة ، واحتوت على كل مستلزمات الرقى والمدنية .

وقد اعترف بهذه الحقيقة كثيرون من المستشرقين والكتاب . ويكفى ان نشير فى هذا المقام الى ما قاله « جوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « ان اصــــول الأخلاق فى القرآن عاليـــة علو ما جــاء فى كتب الديانات الأخرى جميعها »(٣١) .

كما يقال فى الكتاب نفسه : «واذا ما قيست الرجال بجليل اعمالهم كان محمد من اعظم من عرفهم التاريخ » . ثم يقول : « فان مما لا ريب فيه ان محمدا أصاب فى بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التى ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك لا نرى حدا لفضل محمد على العرب »(٣٢) .

لقد بلغ عليه الصلاة والسلام رسالة ربه على اتم ما يكون التبليغ ، وادى الأمانة ، على اتم ما يكون الأداء ، وتوفى صلوات الله وسلامه عليه بعد ان ترك امته على المحجة البيضاء ، ونزل عليه وهو بعرفة فى حجة الوداع « **اليــوم اكملت لكم دينكم واتممت عليـكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** »(٣٣) .. والله الموفق .

* * *

---

(٣١) كتاب « حضارة العرب » للدكتور جوستاف لوبون . نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٤٥

(٣٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ (٣٣) المـائدة : ٣

خاتمة

وبعد .. فقد استعرضت فى هذا الكتاب عقيدة التوحيد فى الرسالات السماوية الشهيرة كما جاء رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وكما نطلق بها القرآن الكريم ، وقد اردت من وراء هذا كله ان اوقف القارىء على أن حقيقة التوحيد هى الهدف الأساسى الذى جاء من اجله كل هؤلاء الرسل منذ هبط آدم الى الأرض الى ان ختم الله تلك الرسالات برسالة محمد ﷺ ولندرك – من خلال تلك السلسلة من رسالات السماء – مدى ما عاناه كل رسول فى سبيل دعوته ، وما صادفه فيها من صعاب ، وما لاقاه من المشركين من طغيان وتكذيب ، حتى كتب الله الغلبة والنصر لهم على اعدائهم وعلت راية التوحيد ، واندحر الشرك واهله .

وعلى الرغم من اننا لا نعتقد مضمون ما جاء فى كتب اليهود أو النصارى من نصوص نجزم بكذب ما كان منها مخالفا لما عندنا من الكتاب والسنة ، الا اننا ذكرنا منها ما كنا نراه ضروريا ، اما لأنه باطل فننبه على بطلانه ، واما لأنه يتفق مع ما جاء فى كتاب الله ليتمكن القارىء فى الحالتين من المقارنة والموازنة بين ما هو دخيل وما هو أصيل – ليصل فى النهاية الى أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى حفظه الله من التحريف والتبديل مصداقا لقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(١) .

والله أسأل أن اكون قد وفقت ، وما توفيقى الا بالله .

د. رشدى عزيز محمد

* * *

---

(١) الحجر : ٩

اهـم المراجـع

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ صحيح البخـــارى ، للامام محمد بن اسماعيل البخـارى ٠

٣ ـ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، للحافظ احمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى ٠

٤ ـ صحيح مسلم ، للامام مسلم بن الحجاج النيسابورى ، بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ٠

٥ ـ المسند ، للامام احمد بن حنبل ، بتحقيق الشيخ احمد شاكر ٠

٦ ـ تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير ٠

٧ ـ تفسير القرآن الحكيم المشـتهر باسم تفسير المنار ، للسـيد رشـيد رضا ٠

٨ ـ تيسير العزيز الحميد ، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبـد الوهاب ٠

٩ ـ تفسير الجامع لأحكـام القرآن ، لأبى عبـد الله محمد بن احمـد القرطبى ٠

١٠ ـ صفوة البيان ، لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف ٠

١١ ـ شرح المواقف ، للسيد الشريف الجرجانى ٠

١٢ ـ شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية ، للعلامة زين الدين الحنفى ٠

١٣ ـ الدين ، للدكتور محمد عبـد الله دراز ٠

١٤ ـ الله ، للأستاذ عباس محمـود العقاد ٠

١٥ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية .

١٦ ـ جامع الرسائل ، لابن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم .

١٧ ـ مجموع تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية .

١٨ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية .

١٩ ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة على الاسلام ، للدكتور على عبد الواحد وافى ، كتب العهد القديم (التوراة) .

٢٠ ـ الأناجيل الأربعة .

٢١ ـ انجيل برنابا .

٢٢ ـ الله واحد ام ثالوث ؟ للأستاذ محمد مجدى مرجان .

٢٣ ـ الأديان فى القرآن ، للدكتور محمود بن الشريف .

٢٤ ـ روح الدين الاسلامى ، للأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة .

٢٥ ـ المفردات ، للراغب الأصفهانى .

٢٦ ـ النهاية ، لابن الأثير .

٢٧ ـ دعوة التوحيد ، للدكتور محمد خليل هراس .

٢٨ ـ امتاع الأسماع ، للمقريزى .

٢٩ ـ كتاب الأصنام ، لابن الكلبى .

٣٠ ـ المنجد فى الأدب والعلوم ، للويس معلوف .

٣١ ـ الجانب الالهى ، للأستاذ الدكتور محمد البهى .

٣٢ ـ وحدة الدين والفلسفة والعلم ، للأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى .

٣٣ ـ عقيدة الصلب والفداء ، للسيد رشيد رضا .

٣٤ ـ اغاثة اللهفان ، لابن القيم .

٣٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين ، للأستاذ محمد فريد وجدى ٠

٣٦ ـ رسالة التوحيد ، للشيخ محمد عبده ٠

٣٧ ـ مذكرة فى التوحيد ، لفضيلة الشيخ صالح شرف ٠

٣٨ ـ الملل والنحل ، للشهرستانى ، تخريج الدكتور محمد ابن فتح الله بدران ٠

٣٩ ـ حضارة العرب ، للدكتور جوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد عادل زعيتر ٠

٤٠ ـ المدخل الى الثقافة الاسلامية ، للدكتور محمد رشاد سالم ٠

٤١ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ، للدكتور جواد على ٠

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الباب الثانى : فى رسالة الاسلام العامة والخاتمة
(١٦٩ ـ ٢٠٠)

الصفحة

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٨٨/٢٨٤٢

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر: ٣ ميدان الموسكي
بجوار جامع الوفاء